مظاهر الشكوى من ظلم المجتمع ابن الرومي مثالاً (221-286هـ)

محمد عبدالقادر أشقر

أستاذ مساعد ، كلية التربية الأساسية ، الكويت

الملخص

تعوّد الشعراء في أدبنا العربي التشكي من الدهر وأهله تشكياً يجعل كثيراً مما قالوه يدخل ضمن الافتراء حيناً ، والمبالغة حيناً آخر ، والصدق حيناً ثالثاً . لكن كثرة الأصوات الشاكية الكاذبة غطت على الأصوات الصادقة ، فاختلط هذا بذاك اختلاطاً يصعب على الباحث تمييز غَثِّه من سمينه ، وصادقه من كاذبه ، حتى ليخيل إليّ أن الشكوى صارت تقليداً فنياً أكثر منه تعبيراً عن واقع حقيقي ، وموضوعاً طريفاً يطرقه الشعراء ، أو يمتحنون به قرائحهم .

وابن الرومي لم يكن غريباً عن تلك الأصوات أو بعيداً عنها ؛ يفتري حيناً ، ويبالغ حيناً آخر ، ويصدق حيناً ثالثاً . لكن القدرة على وضع حدود فاصلة بين تلك الأحايين يكلف الباحث جهداً مضنياً في تتبع أخبار ابن الرومي ، ونخلها في منخل الحقيقة والموضوعية ، وتأمل أشعاره ومقابلة بعضها ببعض للوصول إلى أدق النتائج . وهذا ما فعلته بشكوى ابن الرومي من دهره وأهل مجتمعه ؛ فاجتهدت ما أمكن الاجتهاد ، وأولت ما أمكن التأويل ، فاستطعت أن أصل إلى جملة نتائج ، منها ما يشاركني فيه مَنْ قرأ شعر ابن الرومي قراءة واعية ، ومنها ما هو جديد لم يسبقني إليها أحد ، على حد علمي .

ابن الرومي من أشهر الشعراء في القرن الثالث الهجري ، ولد سنة إحدى وعشرين ومئتين للهجرة ، وتوفي بعد سنة أربع وثمانين ومئتين للهجرة . وهذا يعني أنه شهد أواخر العصر العباسي الأول الذي انتهى سنة اثنتين وثلاثين ومئتين للهجرة ، وقسماً من العصر العباسي الثاني الذي انتهى سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة للهجرة ، وعاصر تسعة من خلفاء بني العباس . وهذه الفترة الزمنية التي عاشها ابن الرومي تعد أخطر فترة تمر بها الخلافة العباسية ؛ فقد شهدت تحولاً خطيراً في موازين القوى التي كانت تتحكم في أمور البلاد ، فبعد أن كان الفرس أعوان الخلافة وأصحاب السلطة الواسعة فيها غربت شمسهم ، وسطعت شمس عنصر أعجمي جديد ، تحكم تحكماً كبيراً في الخلافة والخلفاء ، هو العنصر التركي الذي جاء به الخليفة المعتصم ليقوِّي به نفسه أمام العنصر الفارسي المسيطر على الخلافة آنذاك ، فمنح المعتصم أخواله الترك ؛ إذ كانت أمه أمَّ ولَد تركية الأصل ، ميْزات كثيرة ، وخصَّهم باهتمامه ورعايته ، ومكَّنهم من أمور البلاد ، من غير أنَ يقدروا على مزاحمته في إدارة البلاد ، أو في الاستئثار بالحكم ؛ لأنه كان حازماً وشديداً ، لكن الخلفاء الذين جاؤوا بعده لم يكونوا مثله قوة وحزماً ، فأُفلت زمام الأمور من أيديهم ، وأمسك به القواد الأتراك بقوة ، واستغلوا ضعف الخلفاء العباسيين وحاجتهم إلى دعمهم أسوأ استغلال ؛ فمضوا يتحكمون في أمور البلاد والعباد ، وعاثوا في الأرض فساداً ، يعزلون ويولُّون على هواهم ، ويسلبون الناس أشياءهم ، ويسيئون إليهم بغير حق ، وبلا رادع من دين أو خلق ، ثم وصل ظلمهم إلى الخلفاء أنفسهم ، فأرهقوهم بمطالب لا تنتهي ، وبشغب لا هدف من ورائه سوى المال والتملُّك ، فإذا لم يستجب الخليفة لمطالبهم ، أو استشعروا فيه القوة والحزم خلعوه أو قتلوه ، وعينوا خليفة جديداً للمسلمين ، يكون طوع أمرهم ، يُوْكلُ أمر البلاد والعباد إليهم ، من غير أن تكون له كلمة أو رأي . وقد صور أحد المؤرخين هذه الحال بقوله : إن الأتراك «استولوا – منذ قَتْل المتوكل – على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسَير ، إن شاؤوا أبقَوْه ، وإن شاؤوا خلعوه ، وإن شاؤوا قتلوه»[1] . وفي هذا المعنى يقول أحد الشعراء يصور الخليفة المستعين بالله

(252هـ) الذي تحكم فيه القائدان التركيان (وَصِيْف وبُغا)[2] :

خليفـةٌ في قَفَصٍ بين وَصِيْفٍ وبُغا

يقـول ما قالا له كما يقـول الببَّغا

بل إن الترك كانوا يُضَيِّقون على الخلفاء في أمورهم المعيشية ، فيتدخلون في شؤون حياتهم اليومية ؛ فقد كان الخليفة المُعْتَمد على الله في أيام خلافته (256-279هـ) «محكوماً عليه ؛ حتى إنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاث مئة دينار فلم يجدها»[3] . وقد صور هذا الوضع السيئ بقوله يصف سوء حاله :

أليسَ منَ العجائبِ أن مثلي يَـرى ما قَلَّ مُمْتَنعـاً عليـه

وتُؤْخَذُ باسمه الدنيا جميعاً وما منْ ذاكَ شيءٌ في يديه

إليـه تُحْمَـلُ الأمــوالُ طُـرّاً ويُمْنَعُ بعضَ ما يُجْبَى إليه[4]

ولم يكتف الترك بهذا القدر من التدخل السافر في أمور الخلافة ، بل راحوا يعاقبون الخلفاء الذين يخالفون أوامرهم بالسجن والتعذيب البشع ، كسمل العيون مثلاً .

لكن الخلفاء العباسيين أسهموا في هذا الفساد الإداري أيضاً ؛ فقد انغمس كثير منهم في اللهو والترف ، وبالغوا في الإنفاق على ملاهيهم ولذاتهم وبناء قصورهم حتى تجاوزوا الحد ، من غير أن يهتموا بأمور الناس الذين كانوا يعانون أشد المعاناة ، ويتحملون سفه الخلفاء وظلم الأتراك . فالخليفة المعتمد على الله «كان مشغوفاً بالطرب . والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي»[5] ، لكن هذا لا يعني أن الخلفاء العباسيين جميعهم كانوا فاسدين ؛ فقد كان منهم الصالحون كالخليفة المهتدي (256هـ) الذي حرم الخمر والسماع ومختلف مظاهر اللهو الفاسد ، وجلس ينظر في المظالم بنفسه ، ويؤم المصلين يوم الجمعة ، ويخطبهم ، ويقتصد في النفقات «فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك ، فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه»[6] .

ولم يكن الوزراء أحسن حالاً من الخلفاء ؛ فقد رأوا في مناصبهم فرصاً سانحة للإثراء الحرام ؛ فنهبوا أموال الدولة ، وقبلوا الرشاوى ، وباعوا الولايات لمن يدفع أكثر من غيره ، حتى إن الوزير الخاقاني (وزر للخليفة المقتدر بالله سنة 299هـ) «ولّى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة . . . ومما قيل فيه :

وزيرٌ لا يَمَلُّ من الرَّقَاعَهْ يُولِّي ثم يَعْزِلُ بعدَ ساعهْ

إذا أهلُ الرُّشا صاروا إليه فأحْظَى القومِ أوفَرُهُم بِضاعه»[7]

ولكي يصل الوزير إلى وزارته لا بد أن يدفع المال الكثير لقاء ذلك ، حتى إن أحد الوزراء دفع خمس مئة ألف دينار ليحصل على الوزارة[8] . وهذا المبلغ كبير بلا شك ، لكن الوزير متأكد من استرجاعه من الناس أضعافاً مضاعفة بعد أن يصير وزيراً .

وقد جمع هؤلاء الوزراء ثروات ضخمة أنفقوها على ملاهيهم وترفهم ، تحدث عنها المؤرخون طويلاً ، لكنها كانت عرضة للمصادرات من الخلفاء والأتراك معاً ؛ ففي سنة 299هـ صادر الخليفة المقتدر بالله أموال وزيره (ابن الفُرات) فبلغت سبعة ملايين دينار ، لكنه أعاده إلى الوزارة بعد مدة ، وبقي فيها حتى وفاته سنة 312هـ ، وخلف ما يزيد على عشرة ملايين دينار ! [9]

ووصل جشع هؤلاء اللصوص والمرتشين – من وزراء وقواد – إلى الولايات والأقاليم ، ورأوا فيها صيداً ثميناً أهم من الأموال والأراضي والإقطاعات ؛ فقد نهب عدد منهم بعض الأقاليم من الخلافة واستقلوا فيها ، وإن ظلوا يرضون الخلفاء بالأموال والدعاء لهم على المنابر فحسب ؛ فقد استقل أبناء طاهر بن الحسين – قائد الخليفة المأمون – في خراسان حتى سنة 259هـ ، ويعقوب بن الليث بن الصَّفَّار في بلوخستان سنة 247هـ ، والسامانيون في خراسان وما وراء النهر 389-261هـ .

وأدَّت حوادث أخرى مختلفة إلى تدهور أوضاع الخلافة ، وتدني مستوى معيشة الناس ، وانعدام الأمن في البلاد ، يمكن اختصارها بما يلي :

1 – ثورة الزَّنْج : التي استمرت خمس عشرة سنة (270-255هـ) .

2 – ثورة القرامطة : التي استمرت أكثر من سبعين سنة (358-287هـ) .

3 – ثورات العلويين : في الكوفة وطبرستان (300-248هـ) .

4 – ثورة الصَّفَّاريين : في سجسْتان وكَرْمان وفارس (256-247هـ) .

5 – الخلافات الكثيرة بين الترك والخلفاء ، وما كان يتبعها من اضطرابات بين العامة .

6 – الحروب المستمرة مع الروم .

7 – استيلاء بني بُوَيْه (الفرس) على بغداد سنة 334هـ .

ولم يتوقف خطر الترك عند حد إدارة البلاد ، بل امتد إلى الثقافة والفكر والأدب ؛ فقد كانوا كما وصفهم الجاحظ «أهل عَمَد [خيام] ، وسكان فَياف ، وأرباب مَواش . وهم أعراب العَجَم . . فحين لم تشغلهم الصناعاتُ والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا غَرْسٌ ولا بُنْيانٌ ، ولا شقٌّ أنهار ولا جبايَةُ غَلات ، ولم يكن همُّهم غيرَ الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقَارعة الأبطالَ وطلب الغنائم وتَدْويخ البلدان ، وكانت همَمُهُمْ إلى ذلك مَصْروفةً ، وكانت لهذه المعاني والأسبَاب مُسَخَّرَةً ومَقصورة عليها وموصولة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعَتهم وتجارَتَهم ولذتَهم وفخرَهم وحديثَهم وسَمَرَهم . فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات . . وكآل ساسانَ في المُلْك والرياسة .»[10] . وواضح من وصف الجاحظ لهم أنهم بعيدون كل البعد عنَ التحضر والمدنية والعلوم والفنون ، كما يصفهم الخليفة المستعين بالله بأنهم «قومٌ عَجَمٌ ، ليس لهم معرفةٌ بحدود الكلام»[11] . لكنهم – على الرغم مما تقدم – استأثروا بالعز والنعيم ، وسعى كثير منهم إلى الانتساب إلى القبائل العربية المشهورة ليغطوا ضعف أنسابهم . وقد أشار ابن الرومي إلى هذا التحول الخطير في حياتهم ، فقال في إسماعيل بن بُلْبُل رئيس ديوان الضياع ، والوزير فيما

بعد ، مُذَكّراً إياه بماضيه قبل أن يصل إلى ما هو عليه الآن :

أإسماعيلُ مِنْ رجلٍ تَعَرَّبَ بعد ما شاخا
فأصبح من بني شَيْبا نَ ضخمَ الشأنِ بَذَّاخا
وصار أبوه بَسْطاماً وكان أبوه قَيْباخا
وصار يقول (قم عنا) وكان يقول (قُوْهاخا)
وشُيِّدَت القصورُ له وكانت قبلُ أكواخا
وصار أخَسُّ مَنْ معه له عشرونَ طَبّاخا
وكانت أمُّهُ كَمَّا خَةً وأبوه كَمَّاخا[12]

ويبدو أن كثيرين من الأتراك وغيرهم من الأعاجم – من فرس ونَبَط – لم يُقَدِّروا أهل الأدب ما يستحقون من تقدير ، لذا كثرت الشكاوى من جهلهم وسوء فهمهم للأدب ولا سيما الشعر ، مما اضطر ابن الرومي إلى أن يفسِّر لهم بعض مفردات شعره في القرطاس حتى يفهموها ، لكنهم كانوا يتضايقون من هذا التفسير لأنه يؤكد جهلهم ، فقال يعتذر من أحدهم :[13]

لم أُفَسِّرْ غَريبَها لَكَ لكنْ لامرئٍ يجهل الغريبَ سواكا

ولم تكن حال المجتمع إلا امتداداً سيئاً للواقع السياسي والإداري الفاسد ؛ فقد تباعدت الهوة بين طبقات المجتمع ، وعاش معظم الناس أسوأ عيشة ؛ فكثرت الضرائب المفروضة عليهم ، وكثرت مصادرة أموالهم ، وفُرضت عليهم البضائع التي احتكرها بعض التجار بمساعدة القواد الأتراك بأضعَاف أثمانها ، وكثرت الكوارث الطبيعية من مجاعة وقَحْط وفيضانات ، فارتفعت أسعار القمح والشعير أيام حكم الخليفة المعتضد ، ولم يكن في قدرة العامة الحصول عليهما ، لقلة ما بأيديهم من أموال ، ولقلة المتوافر منهما في الأسواق ، فشكوا أمرهم إلى الخليفة المعتضد لعله يجد حلاً لما هم فيه من سوء[14] . وخرج كثير من الجائعين على القانون ، وقطعوا الطريق على السابلة ، وارتكبوا ألوان الشرور والمفاسد

المختلفة ، واتجه آخرون إلى المجون والخمر والعبث يُضَيِّعون الوقت حتى لا يذكّرهم بهمومهم وأحزانهم ، وليهربوا من واقع مر ، لم يستطيعوا التغلب عليه ، يساعدهم في ذلك ضعف الرادع الديني والأخلاقي في النفوس ، وهم يَرَوْنَ في حكامهم اللاهين العابثين قدوة حسنة ، هؤلاء الحكام الذين غَضُّوا أبصارهم عن ألوان المعاصي التي كانت ترتكب في العَلَن ، من غير أن يقيموا حدود الله ؛ فالحانات منتشرة في كل مكان ، والجواري يفعلن ما يُرِدْنَ في وَضَحِ النهار ، ما دُمْنَ يلقين الحماية والرعاية من أولي الأمر ، والخمور تجَارةٌ رابحة وحرفة رائجة . واتجهت فئة أخرى إلى ربها ، تطلب لديه الأمان من المظالم والمفاسد ، وتجد في المساجد والزوايا والصوامع ملاذاً وأمناً ، فيما عاش أهل الدولة من الحكام والوزراء والقواد ومن نَبَحَ على أبوابهم عيشة الترف . لكن ذلك الفساد لم يكن عائقاً أمام الثقافة والفكر ، بل إنه ساعد على ازدهارهما وتقدمهما . فكيف سيعيش الأديب في مجتمع مضطرب غير آمن ، تهدده الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، ويتقاسم خيراته السفهاء واللصوص والمرتشون ، وتختل فيه القيم والموازين ، ولا يجد مَنْ يرعاه ويقدّره ويُثيبه على أدبه؟ وكيف لا يتسابق الشعراء لاهثين بحثاً عن ممدوحين يُشعرونهم بالأمان في زمن مضطرب لا أمان فيه؟ وكيف لا يتسابق الشعراء في إلصاق الصفات الجليلة والقيم النبيلة بالممدوحين ، وإن لم تكن فيهم ، استدراراً للعطاء؟ ومن المعلوم أن الأدب صار حرفة يحترفها الأديب ليتكسب منها ، كباقي الحرف . لذا كثر المديح التافه المكرور ، وكثرت المبالغات فيه ، مما أدى إلى انصراف كثير من الممدوحين عن الشعراء إلى الكتاب .

ولم يكن هنالك بُدٌّ من أن تنعكس أوضاع المجتمع هذه في الأدب انعكاساً يتضح عند الأدباء من ذوي الحس المرهف والمشاعر الرقيقة ، والنظرة الواعية إلى الحياة ، وإلى ما فيها من تطور وتغير ، وأن تؤثرَ فيهم تأثيرات عميقة تترك صداها في إبداعاتهم . ولعل ابن الرومي من أشهر من كانوا يمتلكون هذه الصفات في ذلك العصر .

فقد وصف ابن الرومي أحواله المعيشية وصفاً كثيراً ، يجد فيه الباحث تناقضاً كبيراً ؛ إذ يُكْثرُ ابن الرومي فيه من التشكي والادعاء بأنه فقير ، محتاج إلى العطاء الذي كثيراً ما وُعدَ به من غير أن يحصل عليه ، وأنه مستعد للرضا بالقليل من العطاء ليسُدَّ جَوعه ويكسو عُرْيَهُ . من ذلك قوله يخاطب أحد ممدوحيه ، مُسْهِباً في وصف سوء أحواله إسهاباً يُخرج كلامه من دائرة الصدق[15] :

ثم أشكو إليكَ جَدْبي والمَرْ ... عَى مَرِيْعٌ والماءُ صاف شَروبُ
ثوبيَ الرَّثُّ والثيابُ طراءٌ ... وطعامي برَغْميَ المَحْشوبُ
وخواني مُلكَّكٌ وقصاعي ... وبرامي فَكُلُّها مَشْعوبُ
وحبابي مَصْدُوعَةٌ وَجراري ... وقِلالي فكلُّها مَثْقوبُ
مَنْ رأى منزلي رأى خَيْرَ علْق ... فيه أنْ ليسَ فيه لي مَنْهوبُ
ومَحَلّي عاريةٌ وجِداراً ... تُ بُيُوتي فَكُلُّها مَنْقوبُ

وهي قصيدة طويلة تسير على هذا المنوال من التشكّي الكاذب ، الذي ليس وراءه شيء من حقيقة ، وكل ما في الأمر أن ابن الرومي أراد أن يستدر عطف الممدوح عليه فحسب . والصحيح أن ابن الرومي كان على شيء من اليسار غير قليل ؛ فقد أشار في أشعاره إلى امتلاكه ضيعة أصابها حريق أتى عليها ، وأن أحد ممدوحيه أسقط عنه خراجها[16] ، وأن لديه زرعاً أصابه جراد فقضى عليه[17] ، وأن عنده دارين ، إحداهما غصبتها منه امرأة[18] ، والأخرى أجبره أحد المتسلطين على بيعه إياها بالقوة[19] . والصحيح أن ما فقده قليل بالنسبة إلى الأموال الكثيرة التي أخذها من ممدوحيه . وقد ذكر ذلك مراراً في قصائده ، وكأنه يُذَكِّرُ الممدوح بعطاء غيره ، لعل النخوة والغيرة تُدركانه فيعطي الشاعر كما أعطاه الآخرون . من ذلك قوله في أحد ممدوحيه[20] :

صاغَنا ثم قاتَنا ووقَانا ... بالتي نَتَّقي بها الأَسْواءَ
مِنْ بِنَاءٍ يكِنُّنا ولَبوسٍ ... ودَواءٍ يُحاربُ الأَدْواءَ

فهو يشير إلى أن الممدوح أطعمه وألبسه وداواه وأعطاه بيتاً يسكن فيه ، ثم يشير في موضع آخر إلى أن أحد ممدوحيه أكرمه غاية الإكرام ؛ فخصص له رزقاً ثابتاً يصل إليه بيسر ، وبلا انقطاع[21] :

أجَلَّني قاسمٌ وأكرمني ... أكرَمَهُ مَنْ أراهُ إكرامي
يَدرُّ رزقي عليَّ في دَعَة ... مُنَفِّلي مالَهُ وأيامي
فالنفسُ في عيشةٍ مُغَفَّلَةٍ ... تَمُرُّ لي كالشُّهورِ أعوامي

والغالب على الظن أن ابن الرومي حصل على أموال كثيرة من ممدوحيه ، لكنه أنفقها على ملذاته وشهواته التي لا تنتهي ولا تَحُدُّها حُدود ، وأنه كان كريماً في إنفاقه على نفسه وعلى الآخرين ، يعيش اللحظة التي تمر به بكل دقائقها ؛ فيَهَب إذا كان مزاجه طيباً ، ويُمْسكُ عن العطاء إذا كان مزاجه سيئاً . كما أننا لا يمكن أن ننسى الغلاء الشديد الذَي أصاب البلاد ، ولا سيما بغداد ، مما جعل الناس يلهثون وهم يركضون خلف القوت ، ولا يدركونه إلا بشق الأنفس .

وقد صور ابن الرومي سوء أحوال الناس في بغداد بسبب الغلاء الذي ألجأهم إلى البحث عن الطعام ، فلم يجدوه إلا بصعوبة بالغة ، بل إن الدقيق صار حلماً يسعى الفقراء خلفه ، بينما تركوا في البيوت أطفالاً جائعين . وقد نال الجوع أصحاب المال أيضاً بسبب ذلك الغلاء[22] :

أحْسَنَ ما كانَع الدَّقيقُ مَوْقعا
منْ رَجُلٍ أفْلَسَ حتى أدْقَعا
إذا أتى يَسعى حَثيثاً مُسْرعا
وَمَدَّ ذو العَيْلَة فيه الإصْبَعا
يشكو إلى الله ويَمْريْ المَدْمَعا
وأصبحَ القومُ البطانُ جُوَّعا
وَخَشِيَ الجائعُ أنْ لا يَشْبَعا

وابن الرومي يشير إلى موقف مهم وقفه منه ممدوحه إسماعيل بن نُوْبَخْتَ ، وهذا الموقف هو سبب نظم ابن الرومي لهذه القصيدة ؛ فقد كان ذلك الرجل «يُجري عليه قَفِيْزَ دقيق في الشهر ما دام سعره بدون الدينار ، فإذا زاد سعره وغلا الدقيقُ جَعله دينَاراً»[23] ، فابن الرومي لم يعد يريد الدينار الذي سيعطيه إياه ممدوحه بدلاً من الدقيق ، لأن هذا الدينار صار لا يساوي شيئاً بسبب ذلك الغلاء . وهذا يعني أيضاً أن ابن الرومي كان ينفق كل ما يأتيه من عطاء على ملذاته وشهواته ، في ظل معيشة غالية ، تكلفه الكثير . ولعل هذين السببين (الإنفاق الكثير ، وغلاء الأسعار) جعلا ابن الرومي في فقر دائم ، وفي حاجة دائمة إلى المال ، ولعله في أواخر حياته احتاج حقاً إلى المال ، وراح يستجديه من ممدوحيه ، ولا سيما بعد أن تحاماه كثير من الناس ، وروَّجوا عنه أنه نحس وشؤم ، فضاقت موارد المال عليه وشَحَّت ، لذا نراه يستدين من الناس لينفق على نفسه[24] :

وارتكابُ الديون إيّايَ في ظلْ لكَ يَهْجوكَ باللسانِ الفَصيحِ

أو يكتفي بطلب القليل من العطاء ؛ كأنْ يطلب ثوباً أو خبزاً أو درهمين أو دينارين[25]

صلته بمعاصريه

لدى العودة إلى أخبار ابن الرومي المتفرقة ، وإلى أشعاره الكثيرة المضطربة التي يناقض بعضها بعضاً في كثير من الأحيان ، وقعت في حيرة شديدة ، مما أَلْجَأني إلى التَّرَوِّي الشديد ، وإلى التمحيص الدقيق ، وإلى عدم الوثوق بكل ما يقوله الشاعر ، ما لم يَطَّرد ، أو تؤيده أخبارٌ صحيحة ، أو يوافق ما عُرِفَ عن نفسية الشاعر . وكل هذا لَيس بالأمر الهَيِّن .

مواقف معاصريه منه

كان معاصرو ابن الرومي ينفرون منه ، ولا يريدونه في مجالسهم ، بل كانوا يتحرشون به ، ويسخرون منه ، ويستهينون به شاعراً ورجلاً ، ويَعدُونَهُ

ويُمَنُّونَهُ الأماني ، ثم يَمْطُلونه ولا يَفُونَ بوعودهم ، فإذا أصرَّ على حقه احتجبوا عنه ، وأغْروا حُجَّابَهم به ، بل سَعَوْا إلى تشويه صورته عند الممدوحين الآخرين ؛ إمعاناً في إلحاق الأذى به ، كما سنرى في ثنايا هذا البحث .

النفور منه ، وإبعاده عن مجالسهم

لم يكن ابن الرومي – في عصره – شاعراً مغموراً ، بل كان شعره يدور على ألسنة الناس ، كباراً وصغاراً ؛ فقد كان ذكرُه يملأ مجالس علية القوم ، يذكرون معانيه الجيدة واختراعاته فيها ، ويتندَّرون بأخباره ، ويرددون بعض أشعاره على سبيل التظرف والتفكه ، ويشيدون بتفرده في بعض موضوعات الشعر ؛ فقد كان الخليفة المكتفي بالله يسأل جلساءه باستمرار عما قاله ابن الرومي في بعض الأطعمة والأشربة ، وكان يحفظها وينشدها ، ويأمر كاتبه بكتابة ما يعجبه منها[26] . ولكن ابن الرومي ظل بعيداً عن قصور الخلفاء ، ولقي الإعراض منهم ومن كبار رجال الدولة .

فما السَّبب في ذلك؟ وهل كان ابن الرومي يستحق هذا الإقصاء المتَعَمَّد لعيوب فيه ، أم أن معاصريه تَجَنَّوْا عليه وظلموه من غير أن يكون له ذنب في هذا التجني؟ وهذا السؤال مهم جداً ؛ لأنه سيؤدي بابن الرومي إلى اتخاذ مواقف واضحة من مجتمعه وأهله ، وإلى سلسلة من قصائد الهجاء المُرِّ والشكوى والتذمر والسخط على الناس ، وإلى شيوع التشاؤم واليأس والإحباط في شعره ونفسه .

ويُخَيَّلُ إليَّ أن ابن الرومي يتحمل نصيباً كبيراً مما لحقه ، لعيوب فيه وفي شعره ، لم يستطع التخلص منها ، كما أن أهل مجتمعه يتحملون قَدْراً مما أصابه .

فأما عيوبه وعيوب شعره التي أسهمت في إعراض الممدوحين عنه ، وما نتج من هذا الإعراض فيمكن إجمال أسبابها بما يلي :

شكله الخارجي

كان ابن الرومي لا يُريح العين التي تنظر إليه ، بل إن العيون ترى منه منظراً غير سار ؛ فقد كان مختل الأعصاب ، يدور حول نفسه وكأنه يُغَرْبِل ، مُقَوَّسَ الظهر ، شاحب اللون ، يبدو عليه الوُجُومُ والحَيْرَةُ والذُّعْرُ والتَّوَجُّسُ ، بصرُهُ ضعيفٌ ، وكذلك سمعه ، مُتَّسخ الثياب[27] ، يتناول الطعام بشَرَه لافت للنظر ، من غير مراعاة لآداب المؤاكلةَ ، حتى إن مُؤاكليه كانوا يتضَايقوَّن منً طريقة أكله ، ومن نثره لبُصاقه في الطعام . وهذه الصفات كلها تخرجه من دائرة الندماء المرغوب فيهم في القصور والمجالس . وأن يكون الشاعر نديماً فهذا يعني أنه قطع نصف الطريق إلى قلب الممدوح ، والنصف الآخر سيقطعه بشعره فيه . وآداب المنادمة كانت حديث الناس على مختلف طبقاتهم .

وكان الندماء يلازمون الخلفاء وكبار القوم في بيوتهم ، حتى إن الخليفة المعتضد أفرد غرفة في قصره لهم ، ينامون فيها ، ويتناوبون على منادمته ، ولكل واحد منهم وقت محدد[28] . وبلغ من اهتمام الخلفاء بالنديم وأدب المنادمة أن راحوا يتحدثون عن ذلك في مجالسهم ، ويشيدون بالنديم ويذكرون فضائله[29] ، كما ألفت الكتب في ذلك ، ككتاب (أدب النديم) لكُشَاجم (محمود بن الحسين توفي سنة 360هـ) . فأين ابن الرومي من كل ذلك ، وقدَ أفسده عليه بطيشه وسلاطة لسانه وقلّة مراعاته لآداب الطعام والمؤاكلة التي هي من أهم صفات النديم الجيد؟

سلاطة لسانه

لم يَسْلَمْ أحدٌ من لسان ابن الرومي ؛ فقد هجا من امتدحهم بعد أن أحسنوا إليه ، وفضح عيوبهم التي كان يُفْتَرَضُ فيه أن يَسْتُرَها ، وافترى عليهم بما ليس فيهم زيادة في إيلامهم . فكيف سيفتحون أبوابهم في وجهه ، وقد علم أحدهم ما صنعه ابن الرومي في غيره؟ وحقاً كان لسان ابن الرومي أطول من عقله ، فلم يستطع ضبط هذا اللسان ، فإن اهتاج أخرج شرراً مُحْرقاً ينال ممن يهيجه ، من غير تفكير في العواقب ، حتى لو كان فيها مقتله ، «فَلذلك قَلَّتْ فائدته من قول الشعر ، وتحاماه الرؤساء»[30] .

اعتقاد معاصريه أنه مختلٌّ عقلياً

اعتقد كثير من معاصريه – بسبب تَطَيُّره وغرابة أطواره – أنه مختل عقلياً ، لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يصدر عنه من تَصَرفات قد تؤذي الآخرين أو تسيء إليهم ؛ فقد وصفه الوزير القاسم بن عبيدالله لابنه – بعد أن رآه عنده – بأنه «سَقيمُ العقل ، ومثلُ هذا لا تُؤْمَنُ بَوادِرُهُ ، وأَقَلُّ غَضْبَةٍ يغضبها تبقي في أعراضنا ما لا يغسله الدهرُ»[31] .

ويبدو أن الاعتقاد باختلال عقل ابن الرومي كان مشهوراً بين أهل عصره وبين من جاء بعدهم ، حتى إن محمد بن أبي الأزهر (ت 279هـ) أَلَّف كتاباً عنوانه : **عقلاء المجانين** ، جعل فيه ابن الرومي واحداً منهم ، وأتى ببعض أخباره في التطير[32] .

وفي ديوان ابن الرومي قصيدة بالغة الأهمية لعل هذا الوزير سمعها ؛ لأن ابن الرومي توجه بها مادحاً ابنه عبيدالله . وهذه القصيدة دليل على اختلال عقل ابن الرومي حقاً ، وعلى عدم تقديره للأمور كما يجب ؛ فقد مدح عبيدالله ابن القاسم بقصيدة تتألف من أربعين بيتاً ، جعل مقدمتها هجاء فاحشاً مقذعاً أشد الإقذاع للمغنية شُنْطُف ، في خمسة وثلاثين بيتاً . وفي هذا الهجاء يذكر ابن الرومي كل قبيح لا يليق ذكره بينه وبين نفسه ، فكيف سيذكره أمام الممدوح وتتناقله الرواة؟ أليس في هذا الهجاء استهانة بقدر الممدوح؟ وبعد أن ينتهي من هجائه لشنطف ينتقل إلى المديح فيقول مخاطباً أبا القاسم عبيدالله[33] :

يا أبا القاسمِ الذي ... في ذَراهُ التَّضَيُّفُ
والذي لم يزل له ... في المعالي تَصَرُّفُ
والذي لم يزل يَجِلْ ... لُ ومعناهُ يَلْطُفُ
قد شَتَوْنا فكم نُصَيْـ ... ـيفُ طالَ التَّصَيُّفُ
فاكْفِنا بَرْدَ قِرْدَةٍ ... تَتَشاجَى فَتَسْخُفُ

وهذه الأبيات التي هي مديح في ظاهرها كما يظن ابن الرومي ليست إلا استهانة بالممدوح ، وليس فيها من المديح إلا الإشارة العابرة إلى كرم الممدوح وعلوِّ قدره ، ثم لا ينسى ابن الرومي أن يستجدي ممدوحه في هذه الأبيات القليلة ، فيذكّره بحاجته إلى الكسوة لأن فصل الشتاء جاء وليس عنده من ملابسه ما يقيه برده ، ثم يختم هذه القصيدة بالتوجه إلى ممدوحه ليقيه شر غناء هذه المغنية القرْدة كما يقول ؛ لأن غناءها يعذب القلوب ويصيبها بالبرد في فصل الشتاء ، على الرغم من محاولاتها تجويد غنائها وتحسينه بإضافة بُحَّةٍ من الحزن إليه ليؤثر في النفوس .

وبعد هذه القصيدة هل كان ينتظر ابن الرومي من ممدوحه العطف والإفضال عليه وإعطاءه حقه من التقدير ، في حين أن ابن الرومي لم يقدر نفسه أولاً قبل أن يقدرها له الآخرون؟ ألم يكن رأي الوزير القاسم بن عبيدالله في ابن الرومي صائباً عندما وصفه بأنه سقيم العقل؟ وأن أقل غضبة يغضبها ستجعله ينهش أعراض الناس ، ويفضحهم ويهتك أستارهم وأسرارهم ، مثلما فعل بهذه المغنية؟

اعتزازه بعلمه وأدبه ، وتعاليه على ممدوحيه

رأى ابن الرومي نفسه شاعراً عظيماً ، وناثراً بليغاً ، وراح يباهي الناس بشعره وبنثره ، ويرفع منزلته فوق منازلهم . والويلُ لمن يتجرَّأ على نقد شعره أو الإساءة إليه من قريب أو من بعيد . وفي ديوانه أشعار كثيرة حول هذا الموضوع ، لا تكاد تخلو قصيدة فيه من الإشارة إلى فضله وبيان أوجه شاعريته وتميزه على أقرانه ، حتى صارت هذه الإشارات سمة واضحة في شعره تمام الوضوح . لكنه لم يكتف بهذا ، بل راح يستهين ببعض ممدوحيه من ذوي الأصول غير العربية ، الذين شكَّ في فهمهم لشعره وتذوقهم له ، فراح يشرح الصعب منه ، أو ما يظن أن ممدوحيه لن يفهموه . وفي هذا إساءة إليهم بلا شك ، واعترافٌ صريحٌ منه بجهلهم . وهذا ما أزعجهم ، فعاتبوه غير مرة ، فكان يحسُّ بأنه أخطأ ، فيعتذر بأن تفسيره للغريب من الكلام ليس موجهاً إلى ممدوحه ، وإنما هو موجه إلى غيره ممن لا يفهمون الشعر[34] .

لكن اعتذاره منهم لم يمحُ إساءته إليهم ، ولم يغتفر معاصروه له تعاليه عليهم ، وتباهيه بشاعريته وفضله ، بل حقدوا عليه وكادوا له ، وتتبعوا نقائصه الخَلقية والخُلقية ، وأبعدوه عن مجالسهم ، وكأنهم يضربون بفضله وبشاعريته – اللذين تغنى بهما كثيراً – عُرْضَ الحائط ، نكايةً به ، لا إحقاقاً للحق ؛ فقد كان ابن الرومي شاعراً عظيماً بلا شك .

الاعتقاد بأنه منحوس مشؤوم

اعتقد معاصروه أنه رجل منحوس مشؤوم ، وأن مقاربته ستنقل إليهم نحسه وشؤمه ، وأن المصائب التي أصابته ، واضطراب نفسه ، واختلالَ أعصابه أدلةٌ على نحسه وشؤمه ؛ فقد تكالبت عليه الأرزاء ونُوَبُ الزمان ، ومزقته شرَّ مُمَزَّق ؛ فمات أبوه وأمه وأخوه وخاله وخالته ، ومات أولاده جميعاً ، ولحقت بهم زوجته ، وماتت المغنية التي كانت تحنو عليه ، وأُصيب بالصلع والشيب في غير أوانهما ، وراح يُغَرْبِلُ في مشيته ، وهي مشية غير معهودة في زمانه ، واضطربت نفسه ، وتغيرت أطواره[35] ، ثم جنى الزمان عليه جنايات كثيرة ؛ فاحترقت ضيعته ، وأكل الجراد زرعه ، وسُلِبَتْ إحدى داريه ، واعْتُديَ على الأخرى . وقد رأى معاصروه أنه مسؤول عنَ هذه المصائب التي حلتَ به ، أو أنها من ذنوبه التي لا تغتفر .

ومما زاد في اعتقاد معاصريه أنه منحوس مشؤوم امتلاكه «آلات الغنى والسعادة ، وأزمَّة التَّقْدمَة والسيادة ، ومع ذلك تَنْصَبُّ عليه هذه الأَرْزاءُ ، وتتوالى على رأسه تلكَ النكباتَ ، فلا ينال عزّاً ، ولا يحظى براحة ، ولا يُعطَى كفاءَ ما يستحقه من فضل ، ولا ينال لقاء ماَ بذله من جهد ، فيعجبون ، ويُشْدَهون ، ويصيحون : إنه نحسٌ ، إنه شؤم»[36] . وزاد ابن الرومي في اعتقاد الناس هذا باعترافه – بلسانه أكثر من مرة – أنه منحوس مشؤوم ، وإن حاول أن يخفف من حدة هذا الاتهام بالقول إن نحسه وشؤمه على نفسه ، لا على غيره ؛ فقد اتهم الوشاة ابن الرومي بأن شؤمه ونحسه جعلا الخليفة المُعْتَضدَ بالله يأمر القاسم بن عبيدالله بالذهاب معه إلى الحرب ؛ لأن ابن الرومي كانَ على صلة بالقاسم ،

فقال ابن الرومي يُبَرِّئُ نفسه من تهمة الشؤم ، ويزعم أنها تهمة باطلة ، بل يدَّعي أنه ميمون الطالع ، وأن نحسه لا يصيب به إلا نفسه[37] :

ولقد خفْتُ والبريءُ مُلَقَّى ... كلُّ ذَنْبٍ برأسِه مَعْصوبُ
أن يقولَ الوشاةُ بي إنَّ شؤمي ... قادَ هذا الشُّخوصَ والإفكُ حُوْبُ
أنا مَنْ لا يُشَكُّ في اليُمْنِ منه ... أو يَمِيْنُ ابنُ فَجْرَةٍ وَيَحُوبُ
كَذَبَ الزاعمونَ أنيَ مَشْؤُو ... مٌ ومانُوْا والثّالِبُ المَثْلوبُ
بل ليَ اليُمْنُ لا محالةَ كالصُّبْـ ... ـحِ إذا لاحَ ضَوْءُهُ المَشْبوبُ
عكَسَتْ أمْرِيَ النُّحُوسُ فَعَنْزِي ... أبداً حائلٌ وَتَيْسي حَلُوبُ
غيرَ أني رأيتُ نحسي على نفـ ... ـسي فَعُودِيْ لا غيرُهُ المَنْخُوبُ

ويبدو أن الاعتقاد راسخ بنحس ابن الرومي وشؤمه ؛ ولعل بعض النقاد والمؤرخين خافوا على أنفسهم من أن يصيبهم نحسه وشؤمه ؛ فلم يترجم له الأصفهاني في أغانيه ، بينما ترجم لمن هم دونه ، ولم يترجم له ابن قُتَيْبَةَ في كتابيه : «**الشعر والشعراء**» ، و«**عيون الأخبار**» ، وكذلك فعل ابن الأنباري في كتابه نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء ، وابن عبد ربه في عقده الفريد ، على الرغم من اهتمَامه الشديد بأدب المشارقة ، ولم يترجم له الطَّبَريّ في تاريخه الكبير ، وياقوت الحموي في معجم أدبائه ، وإنما وَرَدَ ذكْرُ ابن الرومي فيه عَرَضاً في أثناء ترجمة ياقوت لأحمد بن عبيدالله بن عمار[38] .

التَّحَرُّشُ به واستثارته

عُرِفَ عن ابن الرومي تَطَيُّرُهُ من الأشكال والأسماء القبيحة ، وعرف عنه مبالغته في ذلك التطير ، كما عرف عنه سرعة غضبه ، مما جعل كثيراً من معاصريه يتحرشون به ويستثيرونه ، مُتَلَذِّذينَ بمضايقته ، ساعِيْنَ إلى حبسه في بيته ، فقد عُرِفَ عن ابن الرومي اعتصامه في بيته أياماً إن أحَسَّ بقبح أو رآه أو سمع به ، ولعَل معاصريه وجدوا في هذا التطير سلاحاً ينتقمون به منه لأنه

هجاهم ، كما أن محاولاتهم هذه تدل على خبث أخلاقهم ، وعلى رغبتهم في التلذذ بعذاب الآخرين ، وتزجية أوقات الفراغ بإيذائهم . والناسُ «لا يستثيرون بالدعابة إلا الطُّيّاشَ ، لعلْمهم أن الحَليمَ الرّاسخَ الوَطْأة لا تُقَلْقلُهُ المَجانَةُ والمُفاكَهَةُ ، أوَ لَسْتَ ترى الأَطْفالَ والصبيان في الطرقات؟ هل يَسْتَفزُّونَ إلا المُرَهَّقَ ، ومَنْ يعلمونَ عنه الخفَّةَ والحدَّةَ وسرعةَ البادرة؟»[39] . والأخبار في ذلك كثيرة ، منها ما كان يفعله كبارَ الناسَ بابن الرومي ، كالأخْفَش (علي بن سليمان ت 315هـ) النحوي واللغوي المشهور ، والبحتري الشاعر الكبير ، ناهيك عما يفعله أراذل الناس بابن الرومي ؛ فقد كان الأخفش «يعبث به ، فَيَقْرَعُ عليه الباب ، فيقالُ له : مَنْ بالباب؟ فيقول : قولوا لأبي الحسن : مُرَّةُ بنُ حَنْظَلَة ، فَيَتَطَيَّرُ بقوله ، ويقيم أياماً لا يخرج من داره . وكان ذلك سبب هجائه إياه . وقَرَعَ عليه البابَ يوماً – وقيلَ إن البحتري وَجَّهَ إليه مَنْ قرَعَ عليه الباب – فقال : مَنْ هذا؟ فقال : سُخْطَةُ الحَيِّ القَيُّوم ، والمُهْلُ والغسْلِيْنُ والزَّقُّومُ ، والشيطانُ الرَّجيمُ ، وكُلُّ بَلاء كانَ أو يكونُ إلَى يوم الدين . فأقام مدةً لم يخرج ، فسأل عنه المُوَفَّقُ فقيل : هوَ في حَبْسِ البحتري»[40] .

وقد عَرَفَ عنه معاصروه هذا التطير ، فكانوا أحياناً يدعونه إليهم ، ويرسلون إليه غلاماً جميلاً حسن الهيئة ، جميل الاسم ، ليس فيه عَيْبٌ ظاهر يدعو إلى التطير منه ، فيخرج عندئذ راضياً[41] .

كما كان معاصروه يتحرشون به من طريق آخر ؛ فيُشيعون عنه أنه مُخَنَّثٌ ، وَعنِّيْنٌ ، فينهالُ عليهم بالسباب والشتائم المُقْذعة ، وهم يَضحكون منه ، وكأنهم ما أَرادَوا من هذا التحرش إلا ذلك الإقذاع ، كما يفعل الأطفال في الشوارع أحياناً ، عندما يتحرشون بمجنون أو مختل الأعصاب ، ويبتهجون كثيراً عندما يرونه يمزق ثيابه ، أو يضرب نفسه ، أو يَسُبُّهُم سباباً قبيحاً . وكان معاصروه كثيراً ما يتدخلون في أموره الخاصة ، فيسألونه مثلاً : لماذا يضع العمامة؟ ولماذا شابَ قبل أوان الشيب؟ ولماذا نَحُلَ جسمُه؟ ولماذا صَغُرَ رأسُه؟ وكل هذه الأسئلة للتلذذ بانفعاله وهو يرد عليهم ، والسخرية منه ، والعبث به .

ومما يؤكد هذا الفهم عدم مبالاة بعض معاصريه بهجائه لهم ؛ فالأخفش مثلاً كان يحفظ هجاء ابن الرومي فيه ، ويُمْليه على طلبته في المسجد ، وكأنه يملي عليهم علماً من العلوم التي يدرسونهاَ ، لا هجاءً في حقه ، وهذا يعني أيضاً أن الأخفش كان ينظر إلى هجاء ابن الرومي فيه نظرة فنية ، فيُعجَبُ بهذا الهجاء إلى حد تدريسه ، على الرغم مما فيه من فحش وإقذاع بحقه ؛ فقد طلب منه مرَّةً أن يهجوه ، فقال له ابن الرومي : «فاخْتَرْ عليَّ قافية أهجوك (بها) ، قال : على رَويٍّ قصيدة دعْبل الشِّيْنِيَّة ، فقال قصيدته التي يهجوه فيها ، ويُجَوِّدُ حتى لا يَقْدرَ أحدٌ أن يدفعَه عَن ذلكَ ، ويُفْحشُ حتى يُفْرِطَ ، أولها :

ألا قُلْ لنَحْوِيِّكَ الأَخْفَشِ أَنسْتَ فَأَقْصِرْ ولا تُوْحِشِ . . .

وهي قصيدة طويلة . . . وذكر الزبيدي أن الأخفش كان يَتَحَفَّظُ هجاءَ ابن الرومي له ، ويُمْليه في جملة ما يُمْلِي ، فلما رأى ابن الرومي أنه لا يَألَمُ لهجائه تركَ هَجْوَهُ»[42] .

الاستهانة به رجلاً وشاعراً

أشرنا سابقاً إلى أن ابن الرومي كان رجلاً غير مرغوب به في مجالس الكبار ، لأسباب أشرنا إليها ، وإلى أنه لم يكن يمتلك أدوات المنادمة التي تحببه إلى الناس ، فإن اضطر أحدهم إلى دعوته إلى مجلس من تلك المجالس فليكن إلى أسوئها مجلساً ، أو إلى مجلس غير ذي شأن ، وكأنهم يضعونه في الموضع الذي يلائمه حسب رأيهم ، لا في الموضع الذي يستحقه هو كما يعتقد ؛ فقد دعاه القاسم ابن الوزير عبيد الله (الذي أمر بقتله فيما بعد) إلى مجلسه ، وفي هذا المجلس حضرت جاريتان مغنيتان ، إحداهما اسمها دُبْسيَّة ، والأخرى قبيحة اسمها جُلَّنَار ، وانقسم أهل المجلس قسمين ، قسماً مع دبسَية وفيه ابن الوزير ، وقسماً مع جلنار وفيه ابن الرومي ، فغضب ابن الرومي كثيراً لهذا الظلم ، وساءه أن يكون في هذا الموضع ، وهو المعروف عنه عشقه للجمال في الشكل والصوت ، وهو أيضاً صاحب الأيادي البيض على القاسم ، فقد وقف إلى جانبه يهاجم أعداءه ، وينافح عنه وعن أسرته ، ثم يَلقى منه هذا الموقف الظالم؟ فقال

يعاتبه ، ويذكّره بفضله[43] :

في جلَّنَــارَ وأُختهــا دُبْسيَّــة يا بنَ الوزيـرِ لعاتـبٍ مُتَعَتِّــبُ
أحضرتُموني جُلَّنارَ وأُحْضِرَتْ دُبْسِيَّةُ الكُبرى لغــيريَ تُجْنَـبُ
يا سادتي مالــي أُذادُ عنِ التي أَبْغِــي وأُسْعَـطُ بالتـي أَتَحَبَّـبُ
أَمَشاهِدي يومَ الرَّفيهَـةِ تُحْتَمى ومَشاهِدي يومَ الكَريهةِ تُخْطَبُ

وأشار ابن الرومي مراراً إلى استهانة الممدوحين به ؛ فذكر قلّةَ تقديرهم لشعره ، وعدم تمييزهم الشاعرَ المتمكن من غيره ، وقلة عطائهم على مديحه فيهم . من ذلك قوله يخاطب أحد ممدوحيه ، مشيراً إلى استخفافه به ، على الرغم من فضله وشاعريته ، ويتهدده بأنه سيهجوه[44] :

وأَسْوأُ السّيئاتِ سَلُّكَ بالجَهْـ ـلِ حُساماً عليكَ مَسْنونا
وذاكَ أنْ تَسْتَخِــفَّ وزنَ فتىً ما زالَ بالراجحِــينَ مَوْزونا

أو كقوله يشير إلى جهلهم بشعره ، وعدم تمييزهم جيده من رديء غيره من الشعراء ، وتقديم الآخرين عليه ممن لا يستحقون ذلك التقديم لا لشيء سوى أنهم مثلهم جهلة لا يتذوقون الشعر الجميل ولا يميزون الغَثَّ من السمين[45] :

أَغثَّاءُ ما فيهــم أديــبٌ عَلِمْتُــهُ ولا قابِلُ التأديبِ حــينَ يُــؤَدَّبُ
بِحَقِّهِــمُ أَنْ باعَــدوني وقَرَّبُــوا سِــوايَ وتَقْرِيــبُ المُباعَـدِ أَوْجَــبُ
رأى القومُ لي فَضْلاً يُعادِيْهِ نَقْصُهُمْ فمالوا إلى ذي النَّقْصِ والشَّكْلُ أَقْرَبُ
بهائمُ لا تُصْغي إلى شَدْوِ (مَعْبَدٍ) وأمّا على جافــي الحُــداءِ فَتَــطْرَبُ

وفي أخباره القليلة ما يؤكد جهل بعض معاصريه من الممدوحين بالشعر الجيد الذي امتدحهم به ؛ فقد مدح إسماعيل بن بُلْبُل أبا الصَّقْر – وكان رئيساً لديوان الضياع ، ثم صار وزيراً للخليفة المعتمد على الله – بقصيدة من أجمل

قصائده ، مطلعها :

أَجْنَتْ لكَ الوَجْدَ أغصانٌ وكُثْبانُ فيهنَّ نَوْعانِ تُفّاحٌ وَرُمّانُ

«فلما سمع قوله :

قالوا أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبانَ قلتُ لهم كلاّ لَعَمْري ولكنْ منه شيبانُ

قال : هجاني . قيل له : إن هذا أحسنُ المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد عَلا بابنٍ ذُرَا شَرَفٍ كما عَلَتْ برسولِ اللهِ عَدْنانُ

قال : أنا من شيبان ، لا شيبان بي ، فقيل له : فقد قال :

ولم أُقَصِّر بشيبانَ التي بَلَغَتْ بها المَبالِغَ أعْراقٌ وأغْصانُ

للَّهِ شيبانُ قَوْماً لا يَشُوبُهُمُ رَوْعٌ إذا الرَّوْعُ شابَتْ منه وِلْدانُ

فقال : لا واللهِ لا أُثْيِبُهُ على هذا الشعر وقد هجاني»[46] .

وواضح تماماً جهلُ هذا الممدوح بجيد هذا المديح ، وإصرارُه على جهله على الرغم من توضيح حقيقة هذا المدح ، مما جعله في النهاية يظن أن ابن الرومي هجاه ، لذا لم يعطه شيئاً على تلك القصيدة الجميلة . ومن المعروف أن هذا الممدوح لم يكن عربياً ، لكن ولاءه كان في بني شيبان ، وقد هجاه ابن الرومي فيما بعد ، وأشار إلى حقيقة نسبه ، في قصيدة مرت بنا في هذه الدراسة مطلعها :

أإسماعيلُ مِنْ رَجُلٍ تَعَرَّبَ بعد ما شاخا

لكنَّ ما قاله ابن الرومي عن جهل معاصريه لم يكن صحيحاً دائماً ؛ فقد كان فيهم مَنْ يتذوق الشعر الجميل ويهتز له ، ويثيب عليه ، والدليل على ذلك الأشعار الكثيرة التي قالها ابن الرومي ، يشكو فيها من تقديمهم الشعراء الآخرين عليه ، والإحسان إليهم ، لكنه جعل سبب ذلك التقديم جهلَ معاصريه بجيد الشعر ، فقدموا من يعتقدون أنهم شعراء ، وهم حسب رأي ابن الرومي ليسوا

كذلك . لكن هذا السبب غير كاف لتفسير إعراض الممدوحين عن ابن الرومي ؛ بل إنه يحجب الحقيقة عنا قاصداً ؛ فقد عاش بعض معاصريه من الشعراء الكبار كالبحتري مثلاً عيشة هانئة عند الممدوحين ، وفاز منهم بثروات طائلة ، وكان محطَّ تقديرهم . فما تفسير ذلك ، وممدوحو البحتري هم أنفسهم ممدوحو ابن الرومي؟ بل إن ابن الرومي نفسه يشير إلى أن ممدوحه ابن ثَوَابَةَ أحسن إليه ، وصان عرضه عن سؤال الناس لأنه بصير بالشعر الجيد[47] :

أنت الذي صان عِرضي ومَسْألتي عن كلّ كلبٍ على الأحرارِ هَرّارِ

ولن يُثَوِّبَ شِعراً كالعليمِ به ولن يُقَوِّمَ ثوباً مثلُ سِمْسارِ

وهذا يعني أن في شعر ابن الرومي – كما في شخصيته – مطاعن ومآخذ ، جعلت معاصريه يُعْرِضون عنه ويقدّمون غيره عليه .

ولعل السبب هو أن ابن الرومي كان يطيل مدائحه إطالة واضحة ، تجعله يكرر المعنى ، ويقلبه على وجوهه ، ثم يعرضه من جديد بأسلوب آخر ، ولا يتركه حتى يميته . والعربي يحب الإيجاز ، ويرى البلاغة فيه .

وقد أشار النقاد القدامى إلى هذه الناحية في شعره ؛ فابن رشيق (ت 456هـ) يقول : «وكان ابن الرومي ضَنيناً بالمعاني ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولّده ، فلا يزال يَقْلِبُهُ ظَهراً لبطن ، ويَصْرِفُهُ في كل وجه إلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم أنه لا مطمَع فيه لأحد»[48] . وهذا دليل جديد على مقدرة ابن الرومي الفنية في عرض المعاني ، لكنَّ الإطالة الزائدة عن الحد تؤدي إلى أخطار كثيرة تفسد الشعر ؛ لأن الشاعر مضطر إلى إعادة المعنى ، وعصره ، وتقديمه بأسلوب آخر ، من غير أن يضيف إليه إضافات مهمة ، كما أن الإطالة تؤدي إلى حشر ألفاظ ومعان ركيكة أحياناً ، أو غير جميلة ، يبدو فيها الشاعر حاطبَ ليل ، أو كشجرة فيها القشْرُ الخارجي والخشب اليابس والشوك والثمر ، على حد قولِ ابن الرومي نفسه ، وهو يدافع عن العيوب التي رآها بعض ممدوحيه في شعره بسبب تلك الإطالة[49] :

قُوْلا لِمَنْ عــابَ شعْـرَ مادحـه أما تَرى كيف رُكِّـبَ الشجرُ
رُكِّبَ فيه اللِّحاءُ وَالخَشَبُ اليَاَ بِـسُ والشَّــوْكُ بيـنـه الثَّمَـرُ

فما حاجة ممدوح جاهل إلى شعر لا يصل إلى ثمره إلا بعد المرور بالقشر والخشب اليابس والأشواك؟ وما أجمل الورد بعد الوصول إليه عبر الشوك والخشب واللحاء ! لكنه جهل الممدوح .

وكان ابن الرومي يذكّر الممدوح باستمرار بفقره وحاجته ، بل إنّ ذكْرَ فقره كان يشغل حيزاً كبيراً جداً من القصيدة ، وكأن القصيدة فرصة يذكُر منَ خلالها صفاته هو ، لا صفات الممدوح ؛ فقد مدح (أحمد بن ثَوَّابة ت 277هـ)[50] بقصيدة بلغت مئة واثنين وثمانين بيتاً ، منها اثنا عشر بيتاً متفرقاً في المديح فحسب ، والباقي في الشكوى والعتاب وتصوير سوء الحال[51] ، ومدح علي بن يحيى وعاتبه بقصيدة بلغت ثلاث مئة وسبعة وثلاثين بيتاً[52] . وما ذنب الممدوح ليستمع إلى قصيدة من مئتي بيت أو أكثر ، معظم أبياتها استجداءٌ ، واستعلاءٌ ، وتفاخرٌ ، وتذكيرٌ للممدوح بفضل الشاعر عليه ، في معان متكررة ، أنْهكَها التوضيح والتفصيل؟ لكن ما قاله ابن الرومي عن سوء أحواله هو خير ما في مدائحه ؛ لأنه يعبر من خلاله عن معاناته بصدق ، على عكس كثير من تلك المدائح التي غلب عليها التكلف والمجاملة إلى حد النفاق في كثير من الأحيان . ولعل هذا الجانب من أجمل ما خلفه ابن الرومي من شعر .

لذا أصيب كثير من ممدوحيه بالضجر والملل من مديحه فيهم . وابن الرومي نفسه يشير إلى أن ممدوحاً آخر اسمه إبراهيم بن المُدَبِّر (ت 297هـ) سمع مديحه فيه ، ثم وعده أن ينظر في أمر عطائه ، لكنه ردّ إليه مديحه لأنه لم يعجبه ، وطلب منه أن يمدح به غيره ، فقال ابن الرومي يشير إلى ذلك ، ويهجو ابن المدبر[53] :

ردَدْتَ عليَّ مَدْحـيَ بعدَ مَطْـلٍ وقـد دَنَّسْتَ مَلْبَسَـهُ الجديـدا
وقُلْتَ امدَحْ به مَنْ شئْتَ غيريَ وَمَـنْ ذا يَقْبَلُ المـدحَ الرَّديـدا
ولا سِيْمــا وَقَـد أعْمَقْـتَ فيـه مَخـازِيَـكَ اللـواتي لن تَبِيـدا

وابن المدبر هذا لم يكن ممدوحاً مغموراً لا يفهم الشعر أو لا يتذوقه كما يدّعي ابن الرومي ، بل كان شاعراً ، وكاتباً ، علاوة على أنه كان والياً ، ووزيراً[54] . فما عذر ابن الرومي الآن؟

كما أن بعض ممدوحيه كان يتفقده إذا طال غيابه عنه ، ويسأل عنه ، ويرسل في طلبه ، بل إن أحد ممدوحيه عرف تطيره من الأشكال والأسماء القبيحة ، فأرسل إليه غلاماً جميلاً ، حسن الهيئة ، اسمه إقبال ، لعله يتفاءل بشكله وباسمه فيأتي إلى ذلك الممدوح . وهذا دليل على بطلان كثير مما كان يُرَوِّجُهُ ابن الرومي عن استهانة ممدوحيه به وعدم تقديرهم إياه ، بل إنه يذكر صراحة أن في الناس رجالاً كراماً يراعونه ، ويعطونه ، ولا يتركونه عرضة للهموم والمشاق[55] :

وفي الناس أيقاظٌ لكلِّ كريمةٍ كأنهمُ العِقْبانُ فوقَ المَراقبِ
يُراعونَ أمثالي فيستنقِذونَهُمْ وهُمْ في كُرُوْبٍ جَمَّةٍ وذَبَاذِبِ

فكلام ابن الرومي على تقصير معاصريه في حقه لم يكن صحيحاً دائماً ، أو أنه كلام فيه مبالغة ، وإن كان خلف هذه المبالغة شيء من الحقيقة ، لكنها ليست الحقيقة كما يصورها في شعره .

ويبدو أن هذا الاستخفاف وعدم التقدير ذاعا بين الناس عن الشعراء عموماً ، وعن ابن الرومي خصوصاً ، مما شجَّع بعضهم على التطاول عليه والاستهانة به ؛ فقد أجبره أحد المتسلطين أن يبيعه داره ، بعد أن اعتدى عليها بتخريب بعض جدرانها ، وهو يعلم أن ابن الرومي رجل ضعيف ، لا حول له ولا قوة ، وليس له ظهير يسانده ، بل إنه تحداه أن يقدر على رَدْعه ، وسخر منه ، وأشار إلى أن ابن الرومي لن يقدر على فعل شيء معه سوى أن يهجوه ، وهذا شيء تافه لا أهمية له ، بل عَدَّ هذا الهجاء شكلاً من أشكال الضلال في شخصيته ، فلجأ ابن الرومي إلى أحد رجال الدولة الكبار ليأخذ له حقه من ذلك المعتدي ، وشكا له أمره ، ونقل إليه ما قاله ذلك المعتدي[56] :

ولـي وطــنٌ آليْـــتُ ألا أبيعَـهُ وألا أرى غيري له الدهـرَ مــالكا
وقد ضـامَني فيـه لئيـمٌ وعَزَّني وهـا أنا منــهُ مُعْصِــمٌ بِحبـالكـا
وأحْـدَثَ أحداثاً أضَرَّتْ بمنزلي يُرِيـغُ إلى بَيْعِـيْــه منـه المَسـالكـا
وراغَمَنـي فيما أتى مِنْ ظُلامتي وقالَ ليَ اجْهَدْ فيَّ جَهْدَ احْتِيالكا
فما هو إلا نَسْجُكَ الشعرَ سادِراً وما الشعـرُ إلا ضَلَّـةٌ مِنْ ضَلالكا

ومن مظاهر استهانة معاصريه به ، وعدم تقديرهم إياه تجاهلهم سنة وفاته ؛ فلم يهتموا بتحديد سنة وفاته ، وكأنه نكرة لا يعرفه أحد ، فقالوا : إنه توفي «يوم الأربعاء لليلتين بَقِيَتا من جُمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ، وقيل : أربع وثمانين ، وقيل : ست وسبعين ومئتين»[57] . فهل من المعقول أن يختلف الناس في تحديد سنة وفاته على الرغم من شهرته المُدَوِّيَة؟ وهل من المعقول أن يتذكروا أنه توفي لآخري ليلتين من جمادى الأولى وألا يتذَكروا السنة؟

وَعْدُهُ بالعطاء ومَطْلُهُ فيه

عاش ابن الرومي على ما يجنيه من مدائحه في أهل عصره ، فهو مصدر جَرّ الرزق الوحيد لديه ، ولا سيما بعد ما أصاب أملاكه من دمار وخراب . كما أن جسمه الضعيف العليل لم يساعده في امتهان عمل بدني بدلاً من مهنة الشعر ، كغيره من الرجال الذين سُدَّتْ في وجوههم أبواب الرزق في مهنهم ، فراحوا يبحثون عن مهن أخرى تكفل لهم الرزق . لذا كثرت مدائح ابن الرومي وممدوحوه ، رغبةً منه في زيادة العطاء .

لكن المشكلة التي عاناها ابن الرومي لم تكن في شعره فحسب ، وإنما كانت في ممدوحيه أيضاً ؛ فقد كانوا يستمعون لمديحه فيهم ، ويَعدونه بالعطاء فيما بعد . وهنا تكمن مشكلة ابن الرومي ، لأن (فيما بعد) زمنَ متراخٍ غير محدد ، فقد يكون يوماً ، أو شهراً ، أو سنة ، وقد لا يكون له موعد ، وكأَن ابن الرومي سَرَّ الممدوح بكلامه فيه ، فَسَرَّهُ الممدوحُ بوعده إياه بالعطاء ، أي هو كلامٌ

يعدله كلامٌ ، لكن ابن الرومي محتاج إلى ذلك العطاء ، فيلجأ إلى تذكر الممدوح بوعده ، وبأن له حقاً عنده ، وكل ما يريده من الممدوح هو أن يعطيه حقه ، أو أن يعترف له بأنه لن يعطيه شيئاً ، بدلاً من الانتظار ، وتردُّد النفس بين الأمل في العطاء ، والخوف من الرفض[58] :

يا حبــذا ظـلٌّ غــير مُطْمعَـة أو صَوْبُ تلكَ المَباريقِ المواعيدِ
تَفَوْتُ ما أمَّلَتْهُ النفسُ أرْفَقُ بي من حَيْرَةٍ بين تَقْـريـبٍ وتَبْعـيدِ

لكن الممدوح يتجاهل ذلك ، ويَعِدُهُ من جديد ، ويطول الوفاء بالوعد ، فيذكّره ابن الرومي بوعده ، وبأياديه البيضَ عليه ، وكيف أنه دافع عنه بشعره ، ووقف إلى جانبه في المُلمّات[59] :

إذا ضحكتُمْ ضَحكنا في مَفارحِكُمْ وإنْ بكَيْتُـمْ فَمنّـا الأدْمُـعُ الذُّرُفُ
وإنْ رَضيتُمْ رضينا عن مُسالمِكُمْ وإنْ غَضبْتُمْ فنحنُ الشِّيعَةُ الأُنُفُ
حتى إذا ما رَتَعْتُـمْ في ربيعـكُمْ فنحنُ إذْ ذاكَ فيه وحدَنا العُجُفُ
يا رُبَّ عَهْدٍ ووَعْدٍ من ذوي كَرَمٍ يُسْتَهْلكانِ ويبقى الغَدْرُ والخُلُفُ

ويطول الوعد بالعطاء حتى يتجاوز السنتين ، وابن الرومي ينتظر تحقيقه ، ويستغرب من ذلك التأخير ، فلو أنه زرعَ حصى المِعْزاءِ في أرض صلبةٍ لأثمر زرعُهُ كما يقول[60] :

قد حالَ للموعـدِ المأمولِ حَوْلانِ وقد تَلا ذَيْنـكَ الحَـوْلَيْنِ شَهــرانِ
ولو زَرَعْتُ حَصى المِعْزاءِ أثْمَرَ لي مُذْ ذاكَ شيئاً ولو في المَتْنِ صَفْوانِ

ولو كان المَطْلُ بسبب كثرة العطاء ، وعدم قدرة الممدوح عليه لهان الأمر ، لكن العطاء قليل ، ولا يستحق من الممدوح الغني أن يؤخره ، أو أن يُمسكه عن الشاعر عندما مدحه ؛ فالعطاء ديناران فحسب ، فهل يستحق هذا المبلغ الحقير ذلك الوعد والمطل؟ وهل هذا عطاءٌ أم ثمن الحَنُوط الذي سيكون في أكفان ابن الرومي؟[61]

ما بالُ دينارَيْكَ عَنيَ أعْرَضا وتَصَدَّيا لِشَكايَتي وتَعَرَّضا
أنْقَضْتَ عَزْمَكَ ليتَ شِعري فيهما حاشا لِعَزْمِكَ في النَّدى أنْ يُنْقَضا
إنْ كنتَ في ثمن الحَنُوطِ أمرتَ لي بهما تركتُهما إلى أنْ أُقْبَضا
قد طالَ تأميلي (غداً) وقدِ انقضى عمري وعمرُ المَطْلِ باقٍ ما انقضى

ويتكرر في شعره ذكر الخوف من الموت قبل الحصول على العطاء ، ولو كان ذلك العطاء قليلاً ، كأنْ يكون ثوباً مثلاً :[62]

جُعِلْتُ فِداكَ لم أسْأ لْكَ ذاكَ الثوبَ للكفنِ
سألتُكُمُ لِأَلْبَسَهُ وروحي بَعْدُ في البَدَنِ
وقد طالَ المِطالُ بهِ وخِفْتُ حوادِثَ الزَّمَنِ

ويبدو أن الممدوحين كانوا يتعمدون المطل في الوفاء بعهودهم ، إمعاناً منهم في إذلال ابن الرومي ، أو في النكاية به والتلذذ بتعذيبه ، وهو يتردد عليهم مطالباً بحقه :[63]

يضحكُ مِنْ كلِّ ما بكيتُ له كأنَّ لَذّاتِهِ بآلامي

وكانوا قادرين على مكافأته ، أو على رفض شعره فيهم علانيةً ، أو على التصريح له بأنهم لن يعطوه شيئاً . وكانت هذه الحلول – بما فيها رفض شعره أو التصريح بعدم العطاء – سترضي ابن الرومي ، وإن كان بعضها قاسياً عليه ، فسيغضب لحين ، ثم ينسى الأمر ، وهذا ما لم يفعله ممدوحوه . وقد أشار ابن الرومي في إحدى مقطعاته إلى هذا المطل المُتَعَمَّد ، وبيَّنَ كيف أن الممدوح يتناساه ، ويتجاهله ، على الرغم من التذكير الدائم به . ولعل هذه المقطعة من خير الشعر الذي يعبِّرُ فيه صاحبه عن خيبة الأمل والإحباط واليأس من العطاء :[64]

تُذَكَّـــرُ بـي فَتُرْجِيـــني فَتَنْســـاني مَـدى حقَـبِ
فَأُذْكِـرُ تـــارَةً أُخـــرى بنفســي غـــيرَ مُتَّئِـــبِ
فَتَـأْمُرُ أن يُـذَكِّـرَ بـــي جَليســاً منــكَ في تَعَبِ
فَيَــذْكُــرُني فَتُرْجيـــني كَأَوَّلِ وَهْـــلَةِ الطَّلَـــبِ
فَأَحْسَبُ أَنَّ حَظّي مِنْـــ ـــكَ دَهْري أَنْ تُذَكَّرَ بي

الاحتجاب عنه

أَلَحَّ ابن الرومي كثيراً في طلب حقوقه من الممدوحين ، وذكَّرهم بمدائحه الجميلة فيهم ، وبفضله عليهم ، وبوقوفه إلى جانبهم في وجوه خصومهم ، لكنه لم يلقَ إلا الوعود التي لا تتحقق ، فلم يسكت على ذلك الظلم الذي لحق به ، وراح يهددهم بأنه سيهجوهم إن لم يعطوه حقه ، فما كان منهم إلا أن احتجبوا عنه ، وأعطوا أوامرهم لحجابهم كي يظل على الأبواب ، ولا يُسمح له بالدخول ، فكان ابن الرومي يلجأ إلى الحيلة للوصول إلى ممدوحه المحتجب عنه ، أو على الأقل لإيصال شكاته إليه ، أو إعلامه أنه على بابه ينتظر الإذن بالدخول ؛ فقد حجبه الوزير علي بن عيسى مرة ، فكتب ابن الرومي بيتين على «خَزَفَة وألقاها في الدار ، فوقعت بين يديه ، فَأَمَرَ فَأُذِنَ له»[65] .

وقد ظن ابن الرومي – في موقف آخر – أن الحاجب هو مَنْ حَجَبَهُ ، وأن سيده لا علم له بذلك ، ولو أنه عرف أن ابن الرومي يقف على بابه لأدخله وأحسن إليه ، ثم راح ابن الرومي يصور لؤم هؤلاء الحجاب وظلمهم وحرصهم الشديد على الاستئثار بأموال سادتهم لأنفسهم ، وحجبها عن الآخرين ، لذا توجه ابن الرومي بالخطاب إلى ممدوحه ليأخذ له حقه من صاحبه ، وليعرّفه قدره :[66]

وكم حاجبٍ غضبانَ كاسرِ حاجبٍ محا الله ما فيه منَ الكَسْرِ بالكَسْرِ
عَبُـــوسٍ إذا حَيَّيْـتُـــهُ بتحيـــةٍ فَيـالَكَ مِنْ كِبْـرٍ وَمِـنْ مَنْطِـقٍ نَزْرِ

يَظَـلُّ كـأنَّ اللهَ يَرْفَـعُ قَـــدْرَهُ بما حَطَّ مِنْ قَدْري وَصَغَّرَ مِنْ أمري
إذا ما رآني عــادَ أعمى بلا عَمًى وصَـمَّ سَميعـاً ما بِأُذْنَيْـه مِـنْ وَقْـرِ
أَزِفُّ إليـه البِكْــرَ ما زُفَّ مِثْـلُها فيَدْفَـعُ منهـا في التَّرائـبِ والنَّحْـرِ
ولو أنـهُ خَلَّـى إليـكَ سَبيـلَهـــا قَرِرْتَ بها عَيْنـاً وأَثْخَنْـتَ فـي المَهْرِ
ومِنْ شِيَـمِ الحجــابِ أنَّ قلوبَهُمْ قلوبٌ على الأحرارِ أقسى مِنَ الصَّخْرِ
يخافونَ أن يَحْظى سواهُمْ بِحَظِّهِمْ فَهُمْ مِنْ سُـؤالِ السائلينَ على وَحْرِ

لكنه يكتشف الحقيقة المرة أخيراً ، وهي أن الحاجب كان يأتمر بأوامر سيده ، وأن ذلك السيد هو المسؤول وحده عن حجبه عنه ، بل عن طرده إياه من على بابه على مرأى الشامتين ومسمعهم ، فيصاب ابن الرومي بخيبة أمل كبيرة ، ويعاتب الممدوح ، ويذكّره بأنه طُرد من على بابه مع غيره من الشعراء ، ويحمد الله أن الحاجب اكتفى بطرده ، ولم يضربه على وجهه ، ثم يذكّر ممدوحه بفضله عليه ، وكيف أنه كان الوحيد من بين الشعراء الذين كانوا يدخلون عليه ويمدحونه عندما كان قليل الشأن ، فلما علا كَعْبُهُ تَنكَّرَ لابن الرومي :[67]

عَمَّ الأذيــنُ بإذْنـه وتَخَلَّفَــتْ حالـي فلـم أُذْكَـرْ ولـم أَتَوَهَّمِ
لكنْ نُبِذْتُ مع اللَّفيـف بِمَسْمَعٍ وبمنظـرٍ للشـامتـينَ ومَعْـلَـمِ
بل ما أصـابتني هناكَ شَمـاتَـةٌ لكنْ غُبِطْـتُ بأنني لـم أُلْطَمِ
وأَشَدُّ مِنْ ظُلْمِ الأذينِ وسائلي علمي بِظَنِّـكَ أنني لـم أُظْـلَمِ
عَطْفـاً عَلَيَّ أبـا الحسين فإنني مِنْ أَوْليائكَ في الزمـانِ الأقـدَمِ
أنا مَنْ عَرَاكَ وبابُ دارِكَ مُوْحِشٌ مِنْ كُلِّ مُؤْتَنِـفٍ علـيَّ مُقَـدَّمِ

إيـذاؤه

لم يقف معاصروه عند حدود معينة في حقه ؛ فلم يكتفوا بالنفور منه وإبعاده عن مجالسهم ، ومن التحرش به ، ومن الاستهانة به شاعراً ورجلاً ،

ومن وعده وعدم الوفاء بوعودهم أو المطل فيها ، ومن احتجابهم عنه ، بل سعوا إلى إلحاق الأذى به عند مَنْ يظنون أنه سينصفه في العطاء ، ويريح باله ، ويجعله يعيش سعيداً . نعم لقد كرهوا له الخير ، فلم يكونوا سبباً من أسبابه ، وأرادوا أن يمنعوا غيرهم من توصيله إليه . فأيُّ ظلم وأي تعذيب وأي انتقام لقيَ ابن الرومي من معاصريه؟ وممن؟ من أناس كانَ يظنُّ أنهم أصحابه ، فظلموه ظلماً كان أشد عليه من وَقْعِ الحسامِ المُهَنَّد :(68)

فلماذا رَمى هناكَ صَفاني ... أصفيائي عَدمْتُهُمْ أَصْفياءَ
وإنما كان حَقٌّ مثليَ أنْ يُرْ ... حَمَ لاقَوْا أعداءَهُم رُحَماءَ
مَعْشَرٌ خِلْتُهُمْ قبل بَلْوا ... يَ أُوِدَّاءَ صِفْوَةً أصدقاءَ
صادفوا نَكبتي فكانت لديهم ... للقُلوبِ المِراضِ منهم شِفاءَ
وأَظَنُّوْكَ أنَّ ذاكَ وفاءٌ ... منْ مَوالٍ يُصَحِّحُونَ الوَلاءَ
مَنَعوا خَيري ولا تأمنِ الضُّرْ ... رَ مِنَ المانِعينَ منكَ الجَداءَ

موقفه من معاصريه

لم يحترم كثير من معاصري ابن الرومي مشاعره ، ولم يفهموا حاله تمام الفهم ، بل لم يكلفوا أنفسهم السؤال عن أسباب سوء حاله ، من خوف واختلال ونَزَق وسلاطة لسان ، واعتقدوا أن ما به من عيوب وخلل يعود إليهِ هو ، وإلى طَيْشه وسوءِ طَويَّته ، من غير أن يلتمسوا له العذر في شيء من تلك التصرفات الغَرِيبة والسَيئة ، واعتقد آخرون – بسبب قصور أفهامهم ، وعدم قدرتهم على تفسير ما به من سوء ، ورغبتهم في النكاية به – أنه منحوس مشؤوم ، يجب الابتعاد عنه . وهذا منتهى الظلم .

ولقد عاش ابن الرومي في عصر كله دسائس ومؤامرات ومخاطر ، لا بقاء فيه إلا للقوي ، كالبحر تماماً ؛ السمكة الكبيرة فيه تأكل السمكة الصغيرة ، ومن أراد ركوب هذا البحر فعليه أن يُعِدَّ العدة الكافية لذلك ؛ وذلك بوجود

أسرة كبيرة تقف إلى جانبه وقت الشدة ، وتدفع عنه أذى الطامعين فيه ، أو جاه عريض يحميه من أذى الكبار ، أو حيلة تُمكِّنُهُ من مصانعة الآخرين وكسبً رضاهم وثقتهم ، أو قدرة فائقة على التَّلَوُن وتغيير المواقف ليلبس لكل زمن لَبُوسَهُ الذي يلائمه ، أو لسان ذَلق معسول يُحَبِّبُ الناس إليه ، أو جسم سليم من العلل والعاهات لا يترك مجَالاً للآخرينَ ليتندروا بصاحبه . وهذه العُدَّة لم تكن موجودة عند ابن الرومي ، بل وُجدَ عكسها ؛ فقد كانت أسرته مغمورة النسب ، بلا جاه قديم أو جديد ، ولم يكَن عنده من الدهاء ما ينفعه في مصانعة الآخرين ، وكان جريئاً في قول كلمة الحق ، وكان لسانه سليطاً ، وفي جسمه علل وأوجاع ومَطَاعنُ . وإن كانت عدة ابن الرومي هذه مبعث فخر له لأنها جعلت منه شاعراً عظَيماً .

فكيف يمكن لرجل كهذا الرجل أن يعيش بسلام في ذلك المجتمع الظالم؟ بل إن أمثاله غير قادرين على العيش في أي مجتمع آخر ، ما دامت قيمه مثل قيم مجتمع ابن الرومي ، وما دامت أخلاق المرء وصفاته فيه كأخلاق ابن الرومي وصفاته ، إلا «أن يعيش في أمة عظيمة الرقي ، بالغة الرقة والمجاملة ولطف الشعور ، لا تشير إلى عيوبه أَهْوَنَ إشارة ، وتتحاشى كل ما قد يؤلمه عن قرب أو عن بعد ، وتفرض له رزقاً مضموناً نظير علمه وأدبه»[69] . وهذه الأمة لا يمكن وجودها إلا في عالم المُثُل والأحلام ، أو في مُخَيِّلَة الفلاسفة والمصلحين ، أو في مدينة من المدن الفاضلة التَي يستحيل وجودها في الَواقع .

لذا لم يستطع ابن الرومي أن يلائم هذا المجتمع ، فلم يَقْدر أن يرفع أهل زمانه إلى مستوى مشاعره وقيمه ، ولم يستطع أن ينزل إليهمَ ليعيش على قيمهم ، فضاع بين الطموح والواقع . «ومن هنا يأتي سُخْطُهُ على الحياة ، ونقمتُه على المجتمع ، وتَبَرُّمُهُ بأنظمته وأحواله ، وقلةُ صبره على ما يسوءه مما يحتمله الأكثرون أو لا يلتفتون إليه ، وسرعةُ تهيّجه ، وغضبُه على معاشريه والمُحْتَكِّينَ به ، . والذين يلتقي بهم في طريقه»[70] . ومما زاد في غضب ابن الرومي اعتقاده الراسخ بطيب نواياه ، وبأنه أَحْسَنَ إلى ممدوحيه بمديحه لهم ، وبوقوفه إلى

جانبهم ضد أعدائهم ، لكنه لم يلق منهم إلا الجفاء والإعراض والزراية به ، بل راحوا يهاجمونه ، ويلصقون به التهم ، ويشيرون إلى عيوبه ، ويُضَخِّمونها ، ووصل بهم الأمر إلى اتهامه بشعره ، أغلى ما يملك ، فثارت ثائرته عليهم ، وراح يجلدهم بسياط هجائه المر ، وينشر مخازيهم وعيوبهم ، مستبيحاً أعراضهم ، بأسلوب فاحش مقذع ، بلا استحياء ، وبلا مواربة . وهو محق في كثير مما قاله في مجتمعه ومعاصريه .

وإذا تتبعنا مراحل هجوم ابن الرومي على معاصريه – من خلال شعره عموماً – فإننا سنراها على النحو التالي :

الإشارة إلى اختلال الموازين في زمانه ، والرضا بالعطاء القليل ، لكن ممدوحيه قصّروا في عطائه ، ووعدوه ومَطَلُوه ، فألحَّ في السؤال إلى حد الاستجداء ، لكن ممدوحيه صَمُّوا آذانهم عن سماع استجدائه ، فشعر باليأس والإحباط يملآن نفسه ، فهجا زمانه وأهل زمانه معاً ، من غير أن يستثني أحداً ؛ فاختلال الموازين في عصره قَدَّمَ أُناساً حَقُّهم التأخير ، وأخَّرَ أُناساً حقهم التقديم . وهو اختلال جعله هو في القعر ، وجعل الجاهلين والحمقى والمرتشين واللصوص يَطْفونَ على السطح طُفُوَّ الجِيَف المنتنة :[71]

دهرٌ عــلا قَـدْرُ الوضيـعِ به وهَوَى الشريفُ يَحُطُّهُ شَرَفُـهْ

كالبحـرِ يَرْسُـبُ فيه لُؤْلُؤُهُ سِفْـلاً وتَطْفــو فوقَـهُ جِيَفُهْ

وهذا الإحساس بالغَبْن على الرغم من التمتع بالفضل يتكرر كثيراً في شعر ابن الرومي ، حتى يستنفد كل معنى يمكن أن يقال في هذا الموضوع . ولم يكن ابن الرومي وحده من بين الشعراء ممن شعر بالغبن وتصور نفسه مضيعاً في زمانه ، بل إن معظم الشعراء أشاروا إلى هذا الغبن ، وإن كانت إشاراتهم متفاوتة ، حسب أحوالهم النفسية والاجتماعية ، لكن ابن الرومي تجاوز الحد في التعبير عن هذا الغبن ، حتى صار عنده موضوعاً ثابتاً يُلِحُّ عليه باستمرار ، ويورده في معظم قصائده .

ومن الطبيعي أن يقرب هؤلاء الجهلةُ الحمقى أمثالَهم من الشعراء الضعاف ، ويحسنوا إليهم ، كالشاعر (الناشئ) الذي ليس شيئاً يُذْكَرُ أمام شاعرية ابن الرومي ، لكن المجد له ، والإبعاد لابن الرومي ، مما يجعل عقل ابن الرومي في شتات ووسوسة :[72]

إن أُوَسْوَسْ فَحَقيقٌ يُسْعَدُ القِرْدُ وأُنْحَسْ
أصبحَ (الناشئُ) ممنْ يَتَغَنَّى وهْوَ أخْرَسْ
نافقاً عندَ أُناسٍ تَعِسوا والدهرُ أتْعَسْ
كيفَ لا يَشْتَدُّ وَسْوا سِي وأشْعارُكَ تُدْرَسْ
وَضِياءُ الشمسِ لا يُقْـ ـبَسُ والظُّلْماءُ تُقْبَسْ

ثم يتأمل زمانه كله ، وينظر في شؤون أهله ، فيرى أن كثيرين منهم طاروا في السماء لشدة حظوظهم ، فحازوا كل ما يتمنون ، وصاروا يلعبون بدهرهم كما يشاؤون ، من غير أن يكونوا من أصحاب الفضل قولاً أو فعلاً ، وهؤلاء ليسوا من الشعراء والكُتاب فحسب ، بل انضم إليهم التجار والشرطة . ويتساءل بحرقة لا تخلو من الحسد والحقد : هل أنا أقلُّ منهم مرتبة وأهمية حتى لا ألحق بهم؟ أم أن الدهر مال إليهم فساعدهم ، ومال عني فأهملني؟[73]

أتُراني دونَ الأُلى بَلَغوا الآ مالَ مِنْ شُرْطَةٍ ومِنْ كُتّابِ
وتِجارٍ مِثْلِ البَهائِمِ فازوا بالمُنَى في النفوسِ والأحبابِ
فيهمُ لُكْنَةُ النَّبيطِ ولكنْ تحتَها جاهليَّةُ الأعْرابِ
أصبحوا يَلْعَبونَ في ظلِّ دهرٍ ظاهرِ السُّخْفِ مثلهم لَعَّابِ
غيرَ مُغْنينَ بالسيوفِ ولا الأقـ ـلامِ في مَوْطِنٍ غَناءَ ذُبابِ

وابن الرومي لم يكن من الشعراء الطماعين الذين لا يرضيهم العطاء مهما كان كثيراً ، بل كان يرضى بالعطاء الذي يلبي حاجته ، ولا يَغْمِطُهُ حقَّه ، قياساً

على مايأخذه غيره من الشعراء أمثاله في المرتبة الشعرية ، لكنَّ انصرافَ الممدوحين عنه ، وإهمالهم إياه ، وقلةَ ما يأتيه منهم دفعه إلى طلب القليل من العطاء ، فهو خير من عدمه ؛ فرضي مثلاً بدينارين ، وبثوب وكساء ، وبطعام فحسب :

يا من عكَفْنا عليه لائذينَ به فما عكفنا على بُدٍّ ولا وَثَنِ
أعاذَكَ اللهُ مِنْ حالٍ تُماطِلُني لِضَيْقِها بِكِساءٍ تافِهِ الثَّمَنِ[74]

أو كقوله يشكو إلى ممدوحه فقره الشديد ، وحاجته إلى الطعام !:[75]

فَقَوِّمْ بما دُوْنَ المَجاعَةِ إنها سِهامٌ حِدادٌ بَلْ سُيوفٌ صَوَارِمُ

بل إنه لم يعد يريد من ممدوحه إلا أجرة الوراق وقيمة الورق الذي كتبت فيه القصيدة :[76]

رضيتُ مما كنتُ أمَّلْتُهُ بِأجْرِ وَرَّاقي وغُرْمِ الورقْ
فاجعلهما حظّي وعَجِّلْهُما وارْضَ مِنَ المَطْلِ بما قد سَبَقْ

وترتفع نبرة الاستجداء هذه في شعره ارتفاعاً واضحاً لا لبس فيه ، وكأنه لم يعد لديه أمل في أن يعطيه الممدوح شيئاً مناسباً لشاعريته ، فراح يطلب أقلّ القليل ، ولا هدف له إلا سَدّ جوعه :[77]

قُوتٌ يُقيمُ الجسمَ في عِفَّةٍ أُشْعِرْتُها قِدْماً وأُلْحِفْتُها

ويصل به الاستجداء حداً محزناً لا يعرف معه السبب الذي جعل ممدوحيه لا يعطونه شيئاً ، فيطلب منهم أن يستخدموه في أي عمل مقابل الطعام فحسب ، أو أن يعطوه كما يعطون الزِّمْنى (المرضى الذين طال مرضهم ودام) ، فإن لم يكن هذا وذاك فليكن إعطاؤهم إياه للمعروف الذي لن يضيع عنده وعند الله والناس :[78]

أذو آلَةٍ؟ فاستخدِموني لآلَتي بِقُوتي أو لا فارزُقوني مع الزِّمْنَى
هَبُوني امْرَأً لا حَظَّ فيه لِمُجْتَنٍ أمَا في اصْطِناعِ العُرْفِ مكْرُمَةٌ تُبْنَى

لكن صراخه يذهب أدراج الرياح فلا يسمعه أحد ، وإن سمعوه تجاهلوه ، فأصيب باليأس والإحباط من أن يستجيب له أهل زمانه ، وراح يتأمَّل حياته منذ أن كان صغيراً إلى أن شاخ فلم يجد فيها إلا الحرمان والظلم ، على الرغم من فضله وصَبْره على نُوَب الزمان ، وتجاهُل الممدوحين ، فكَرِهَ الدنيا وأهلها ، وكره العطاء وحرْفَةَ الشعر التيَ لم تجلب له إلاَ الهم والفقر :[79]

حُرِمْتُ في سِنّي وفي مَيْعَتي ... قـرايَ مِنْ دنيـا تَضَيَّفْتُـها
لَهْفي على الدنيا وهل لَهْفَـةٌ ... تُنْصِـفُ منهـا إنْ تَلَهَّفْتُـها
كـم آهَـة لي قـد تَـأَوَّهْتُها ... فيهـا ومِـنْ أُفٍّ تَأَفَّفْتُـها
أَغْـدو ولا حـالَ تَسَنَّمْتُـها ... فيهـا ولا حـالَ تَـرَدَّفْتُـها
أَوْسَعْتُها صَبْـراً على لُؤْمِها ... إذا تَقَصَّـتْـهُ تَطَـرَّفْتُـها
قُبْحـاً لها قُبْحـاً على أنها ... أقبـحُ شيءٍ حـينَ كَشَّفْتُها
لا عُذْرَ لي في أسَفي بعدها ... على العطايـا عِفْتُها عِفْتُـها

ثم يلتفت إلى ممدوحه طالباً منه المساعدة لكي يبعده عن حرفة الشعر التي أنكر فيها نفسه منذ أن عرفها كما يقول :

إليـكَ أشكـو أننـي طالـبٌ ... خابتْ ركـابي منذُ أَوْجَفْتُـها
اطْـرُدْ ليَ الحِرْفَةَ وادْعُ الغِنى ... واذكُرْ سُموطـاً كنتُ أَلَّفْتُـها
لكنني أَفْـرَقُ مِـنْ حِـرْفَـةٍ ... أَنْكَـرْتُ نفسـي منذُ عُرِّفْتُـها

لكن كل محاولاته لم تنفعه مع أناس عَمُوا وصَمُّوا ، بل تناولوا عيوبه ونقائصه ، وسخروا منه ، وسعوا إلى إلحاق الأذى به ، لذا يئس منهم ومن عطائهم ، بل يئس أن يجد فيهم من يستحق المديح أو الهجاء[80] :

آيَسْتُ مِنْ دَهـري وَمِنْ أهله ... فليسَ منهـم أحـدٌ يُرْضَى
إنْ رُمْتُ مَدْحاً لم أجِدْ أهلَهُ ... أو رُمْتُ هَجْواً لم أجِدْ عِرْضا

لذا لم يكن هنالك بُدٌّ من التصدي لهم ، والانتصاف منهم ، وإلحاق الأذى بهم مثلما ألحقوا الأذى به ، فاستلّ لسانه ، وراح يخوض في نقائصهم وأعراضهم ، يصف حقيقة حيناً ، ويفتري أحياناً كثيرة ، ولا غاية عنده إلا الانتقام والتشفي . لذا فهجاؤه – في معظمه – ردود أفعال ، يدفع به الأذى عن نفسه ، فإن تاب المهجو من ذنبه غفره له ابن الرومي ، ولم يعد يهجوه ، وإن عاد مرة ثانية إلى التعرض له عاد ابن الرومي إلى هجائه . وهذا ما حصل بينه وبين الأخفش ؛ فقد تعرض له الأخفش ، وسخر منه ، وعاب شعره ، فهجاه ابن الرومي ، لكن الأخفش خاف على عرضه من هجاء ابن الرومي ، فصالحه واعتذر إليه ، ووعده ألا يتعرض له ثانية ، فرضي عنه ابن الرومي ، ومدحه ، وأشاد بفضله ، لكن الأخفش نقض عهده ، وعاد إلى إيذاء ابن الرومي ، فعاد الهجاء بينهما من جديد[81] .

فابن الرومي إذاً ليس شريراً بطبعه ، وإنما كان يساق إلى الهجاء سَوْقاً ، فإن زالت أسباب الهجاء عاد كما كان من قبل ، من غير أن يخلّف هذا الموقف في نفسه شيئاً من الحقد على المهجو ؛ لأن نفس ابن الرومي كانت طيبة ، لا تحمل غلاً على الآخرين ، ولا مكان فيها للحقد ، وإنما هي نفس وديعة طيبة . وهنالك أدلة كثيرة على نقاء نفسه وطيب عنصرها ، وأنه كان يدفع الشر عن نفسه ولا يهاجم الآخرين بلا سبب ، أو قبل أن يهاجموه . من تلك الأدلة :

1 – معظم مهجويه كان قد امتدحهم ثم هجاهم ؛ لأنهم قصّروا في عطائه ، أو وعدوه وأخلفوا وعودهم إياه . وهذا من حقه ، وهو دليل دفاع عن النفس ، لا دليل هجوم وشر .

2 – كان يحذّر الناس – غالباً – قبل أن يهجوهم ، ويلوّح لهم بالهجاء ، وبمعرفته بأساليبه المختلفة ، حتى لا يهاجموه فيضطر إلى هجائهم . كقوله يخاطب أحد ممدوحيه :[82]

فإنْ أَبَيْتَ السِّلْمَ فاعْزِمْ بنا فإنّ حَربي في قَفَا سِلْمي

أَضْـرِبُ مَنْ يَضْـرِبني سـادِراً وَتَـارَةً أَرْمِـي الـذي يَـرمي
فَلْيَخْشَ مني مَـنْ دَنا مُنْصِلي ولْيَخْشَ مني مَنْ نَأى سَهْمي
ولسـتُ بالظـالِـم إخـوانَهُ لكنني أَمْنَـعُ مِـنْ ظُلْمـي

فهو يهدده بالهجاء إن أراد الحرب ، ويبين له أنه قادر على هجائه ، شديد فيه ، لكنه رحيم بإخوانه ، لا يظلمهم ، وإنما يمنع عن نفسه الظلم . ويخيّر ممدوحاً آخر بين كسب وده وبين الاكتواء بنار هجائه :[83]

أنا عبدُ الإنصاف قرْنُ التَّعَدِّي فاسْلُك القَصْدَ بي وعَدِّ العَدَاءَ
أنا ذو صَفحتينِ مَلْسَاءَ حَسْنا ءَ وأُخـرى تَمَسُّـها خَشْنـاءَ
فمتى شِئْتَ فامْتَحِنِّي وأَوْلى بِكَ عَفْـوٌ يقـابِـلُ اسْتِعْـفـاءَ

3 – مشاعر ابن الرومي كانت متقلبة ؛ فمرة يحب فيكثر من التعبير عن مشاعر حبه ، ومرة يكره ويتغير مزاجه ، فينقلب ذاماً هاجياً . وهذا التقلب دليل عفوية وطفولة ، وليس دليل شر متأصل في نفسه . وهذا التقلب نراه كثيراً في هجائه لمن كان قد امتدحهم ، كقوله لممدوحه يستنجز وعداً كان قد وعده إياه وأخلفه ، وقد أشار ابن الرومي إلى أن أخلاق ممدوحه تشبه أخلاق البغل الذي وعده به ، ولم يف بذلك الوعد :[84]

أَنْجِزِ الوَعْـدَ إنّ خَـيْرَ مَوَاعِيـ ـدكَ ما جاءَ خَلْفَـهُ مِصْـداقُكْ
هوَ بَغْـلٌ وَعَـدْتَنِـيْـه فإنْ أَخْـ ـلَفْتَ ضاهَتْ أَخلاقَهُ أخلاقُكْ
فَتَخَـيَّـرْ مِـنِ اثْنَتَـيْـنِ ولا يُغْـ ـلِقْ عليكَ المذاهبَ استِغْلاقُكْ
قَوْدَكَ البغلَ أو إباقَكَ في الأر ضِ عليـه وأيـنَ منـي إبـاقُكْ

أفلا يستحق ممدوحه هذا الهجاء الساخر؟ وكل ذلك بسبب بغل !

4 – الهجاء تعبير عن انفعال ما تجاه موقف لا يعجب الهجّاء ، وإنما يراه موقفاً قبيحاً أو سلبياً ، وهو في النهاية إخراج لما في القلب من مشاعر الغضب

والسخط والكره . وهذا يعني صفاء السَّريرة وطيبَ الطَّويَّة ؛ لأن الشرير لا يحتاج إلى الكلام ليطفئ غضبه ، بل يطفئه بالفعل لاَ بالكلام ، والرجلُ الطيب الضعيف يُكثر من الكلام ، ولا يفعل شيئاً ، كصغار الحيوانات تماماً ؛ تنبح وتزأر لأنها خائفة ، وغير قادرة على إبعاد خصومها عنها بأنيابها ، على عكس الحيوانات الكبيرة التي يقلّ نباحها وزئيرها ؛ لأنها قادرة على أن تنال ما تريد بأنيابها ومخالبها ، على حد قول الشاعر :

ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زَئيراً وأصْرَمُها اللواتي لا تَزِيْرُ

وابن الرومي كان يزأر فحسب ، وزئيره زئير حيوان خائف ، يدفع الأعداء عنه بما يُصْدرُهُ من أصوات مفزعة ، هدفه فيها إبعادهم عنهم ، وإخافتهم منه ليتركوه وشأنه . لكن زئيره كان يؤذي الآخرين على الرغم من صفاء نفسه ونيته الحسنة ، مثلما كان يؤذيهم خبيثُ النفس أو الشرير ؛ لأن النتيجة في النهاية واحدة ، وإن كان الباعث مختلفاً .

وكان ابن الرومي يحس براحة كبيرة بعد أن ينتهي من هجائه ، وكأنه يخرج سخطه كله ، وغضبه كله عبر هذا الهجاء ، أو أنه بهذا الهجاء يختم مشكلته مع خصمه ، ويضع لها حلاً نهائياً .

5 – في شعر ابن الرومي غزلٌ رقيق ، ورثاءٌ حزين شفاف لأمه وأولاده وللمغنية بُسْتان ، وكلامٌ طيب على الصداقة والأخوة ، وفيه استحسانٌ وإحساس عميقان تجاه مظاهر الجمال في البشر والطبيعة ، وتعاطفٌ مع البائسين أمثاله ، كالأعمى الذي اضطر إلى أن يعمل حمالاً حتى لا يسأل الناس ما بأيديهم[85] . وكل هذا يجعل من ابن الرومي شاعراً حساساً مرهف المشاعر ، طيب النفس ، لا شريراً[86] .

6 – كان ميالاً إلى المغفرة والصفح عن خصومه الذين آذوه ، ولا يحقد عليهم . وهذا دليل خير لا دليل شر ، لكنه كان يحذّر الآخرين من التمادي في الإساءة إليه ، وفي استفزازه ؛ لأن لتسامحه نهاية ، يأتي بعدها انتقامه ، فقال يذكّر ممدوحه بذلك :[87]

وأنني ما زلتُ مُسْتَحْسناً مَغْفرَتي مُسْتَقْبحاً نَقْمي
والحزمُ في نَقْمي ولكنني أُوثرُ إحساني على حَزْمي
وليسَ شأني الجهلَ لكنني قد يَقْدَحُ الإحْراجُ في حلْمي
واعْلَمْ إذا اسْتَخْفَفْتَ بي أنه قد تَحْقِرُ الشيءَ وقد يَنْمي

ويبدو أنه كان يحس أحياناً بثقل وطأة هجائه على الناس ، وبآثاره العميقة في نفوسهم ، فيندم على ما قاله فيهم من هجاء ، ويعاهد نفسه ويعاهدهم بألا يهجوهم ثانية ، وإن استفزوه وآلموه ، ثم يعلن على الملأ أن الناس في أمان من لسانه :[88]

آلَيْتُ لا أهجو طَوا لَ الدهرِ إلا مَنْ هجاني
لا بلْ سأطَّرِحُ الهجا ءَ وإنْ رَماني مَنْ رَماني
أمِنَ الخلائقُ كُلُّهم فَلْيَأْخُذوا مني أماني

لكنه لم يستطع الامتناع عن الهجاء ، على الرغم من الوعد الذي قطعه على نفسه في أبياته هذه ؛ لأنه كان يصطدم بمن يستحقون الهجاء ، وإن لم يهجوه ، فيعود إلى الهجاء من جديد .

وكان يرى أن بعض النفوس المريضة لا تُداوى إلا بالهجاء ، لكثرة ظلمها للناس ، وقلة إنصافها لهم ، وأنه بهذا الهجاء كريم ، يجود على مهجوّيه بكرمه الزائد في الهجاء ، وهو غير مَلُوم في ذلك لأنهم يستحقون هذا الهجاء ، كما أنه بهذا الهجاء يداوي نفسه أيضاً مما لحقها من أذاهم .

وبذا يكون الهجاء عنده شفاءً لما في صدره من غضب ، وحاجةً نفسية لا بد من بلوغها ، ودواءً لمن يستحقه من الذين آذوه وأغضبوه :[89]

وكنتُ إذا ما هجاني امرؤٌ لئيمٌ عَرَفْتُ دواءَ اللّئيمْ
أَعُدُّ هجائي له نائلاً وأَبْذُلُهُ بَذْلَ سَمْحٍ كريمْ
فَأَبْلُغُ مِنْ شَتْمِهِ حاجتي ولم أَهْدِ في ذاكَ هَدْيَ المُليمْ

كما كان يرى أن إشاعة خزايا هؤلاء الناس وفضحهم والتشهير بهم واجب على كل إنسان شريف ، لأنهم قوم لئام كالخنازير ، خِساسٌ كاليرابيع ، لا يتذوقون الشعر ، ولا يفهمونه :(90)

لئَـــامٌ كالخنـــازيـــرِ خســـــاسٌ كاليرابيـــعِ
إذا ما امتُـدحـــوا قالوا وقَعْنـــــا في النَقاقيـــعِ
رأيتُ المُهْـــدِيَ الشِّعْـرَ إليهـــم فَـرْطَ تَضْيْـيْـعِ
كَمَـن دَحْـرَجَ دُرَّ البحـ ـــر فـي بَخْـرِ البَلاليـعِ
أشِـعْ عنهـــم خَزاياهم وسَمِّـــعْ كلَّ تَسْميـعِ

وإن التدقيق في طبيعة مهجوّيه يؤكد طيب عنصره وسلامة نيته ، فهو لم يهجُ إلا من يستحق هذا الهجاء . ومهجووه من الشخصيات التالية :

- شخصيات قَصَّرت في حقه ، أو وعدته بالعطاء ثم أخرته عليه ، أو لم تلتزم بوعودها : من وزراء وقواد ورؤساء دواوين وغيرهم . وهؤلاء كانوا كثيرين . وقد مر بنا بعض ما قاله في هجائهم .
- شخصيات هاجمته ، وسخرت من رجولته وشكله : وقد مر بنا رده عليهم .
- شخصيات عابت شعره أو انتقدته : كالأخفش مثلاً . وقد رد عليه ابن الرومي بهجاء ذكر فيه جهل الأخفش بالرواية والشعر ، كما تناول مخازيه ، ووصفَه أبشع وصف ، وتعرَّض لأمه بالهجاء المقذع ، من غير أن يشير إلى مآخذ الأخفش التي أخذها عليه . من ذلك قوله :(91)

قلتُ لمن قال لي عَرَضْتُ على الـ أخْفَش ما قُلْتَـهُ فما حَمِدَهْ
قَصَّرْتَ بالشِّعر حينَ تَعْرضُهُ على مُبِيْن العَمَى إذا انْتَقَـدَهْ
شعـريَ شـعْرٌ إذا تَأمَّـلَهُ الـ إنسانُ ذو الفَهْم والحجا عَبَـدَه
لكَنهُ ليسَ مَنْطـقاً بَعَـثَ الـ ـلَّهُ بـــه آيـةً لمَـــنْ جَحَـدَهْ
ولا أنا المُفْهِـمُ البَهـائـمَ والطْـ ـطَيْرَ سُلَيْمـانُ قـاهـرُ المَرَدَهْ
ما بَلَغَتْ بي الخُطوبُ رُتْبَةَ مَنْ تَفْهَـمُ عنهُ الكلابُ والقِـرَدَهْ

- شخصيات قبيحة ، خَلْقاً وخُلْقاً : لم تتعرض له بالسوء ، وإنما رأى فيها سوءاً ، فقد كان مرهف الأحاسيس ، ينفر من مظاهر القبح الخارجي : كالعَوَر ، والحَدَبُ ، والقِصَر ، والصَّلَع ، واللحى الطويلة ، والأنوف الكبيرة ، والأصوات القبيحة في الغناء ، كما كان ينفر من القبح الأخلاقي : كالبخل ، والكذب ، وإخلاف الوعد ، والظلم . . ولم يكن يكتفي بالنفور من مظاهر القبيح تلك ، بل كان يهجو أصحابها هجاء ساخراً خالياً من الإقذاع حيناً ، وهجاء مقذعاً لا فن فيه حيناً آخر .

وعثرت على خبر بالغ الأهمية ، يفسح المجال لإعادة النظر في كثير من الهجاء الذي نُسبَ إلى ابن الرومي ؛ فقد كان علي بن محمد بن نَصْر الوَرْزَنِيْنِيّ البصري البَسَّامِيّ (ت 302هـ) شاعراً هَجّاءً «لا يَسْلَمُ من لسانه أحدٌ . وَهو معدود في العَقَقَة ، وكان يصنع الشعر في الرؤساء ، ويَنْحَلُهُ ابنَ الرومي وغيره» [92] أي يقول شعراً ، ثم ينسبه إلى غيره من الشعراء الذين شهروا بالهجاء ، خوفاً من بطش المهجو . وكان هذا الشاعر معاصراً لابن دُرَيْد (ت 321هـ) ، وقد لقيه ابن دريد ، واستنشده أشعاره ، فاعترف أمامه أنه كان ينحلها غيره . وقد سمع المَرْزُبَانيُّ (ت 384هـ) هذا الخبر من ابن دريد نفسه ، ورواه عنه[93] . ويبدو أن هذا الصنع كان معروفاً عن هذا الشاعر ؛ فقد أكّده ياقوت الحَمَويُّ (ت 626هـ) أيضاً ، وجاء بشاهد شعري على ذلك ، فقال : ومن شعر عَلي بن محمد «الذي قاله ونَحَلَهُ ابنَ الرومي قولُهُ يخاطب عبيدالله بن سليمان الوزير ، وقد مات ابنه أبو محمد في سنة أربع وثمانين (وهذا يعني أن ابن الرومي كان حياً في هذه السنة) :

قُلْ لأبي القاسمِ المُرَجَّى ... قابَلَكَ الدهرُ بالعَجائبْ

مات لك ابنٌ وكان زَيْناً ... وعاشَ ذو الشَّيْنِ والمَعايبْ

حياةُ هذا كَفَقْدِ هذا ... فلستَ تَخْلُو مِنَ المصائبْ

فبلغت الأبيات عبيدالله فَسَاءَتْهُ ، فدَعا البَسَّاميَّ وقالَ : يا عليُّ ، كيف قلتَ؟ فعلم البسامي أنه مُغْضَبٌ فقال : قلتُ أيها الوزيرَ :

قل لأبي القاسمِ المُرَجَّى لن يَدْفَعَ الموتَ كَفٌّ غالبْ
لَئِنْ تَوَلَّى بِمَنْ تَوَلَّى وَفَقْدُهُ أعْظَمُ المَصائِبْ
لقد تَخَطَّتْ لك المَنايا عن حامِلٍ عنكَ للنَّوائِبِ

يعني ابنه أبا الحسين ، فسكت عبيدالله ، ولَهَا عنه»[94] .

والأبيات الثلاثة الأولى موجودة في ديوان ابن الرومي بتمامها[95] ، دون أية إشارة من ناسخ الديوان أو من محققه إلى هذا النحل . وهذا يعني أن البسامي – وربما غيره – نظموا أشعاراً في هجاء كبراء أهل زمانهم ، ثم نحلوا تلك الأشعارَ ابنَ الرومي المسكين ، لأن الناس سيصدقون ذلك ، لما عُرِفَ عنه من هجاء وسلاطة لسان ، مما زاد في نفور الناس – ولا سيما الممدوحينَ – منه ، وحرمانه من جوائزهم . وهذا ظلم جديد يضاف إلى المظالم الكثيرة التي لحقت به .

إحساسه بالتميز

شعر ابن الرومي في أعماقه بأنه متميز من الشعراء الآخرين تميزاً يوجب على الناس أن يقدروه ويحترموه ويعرفوا حقه عليهم . وهذا الإحساس بالتميز جاءه من ثقته الكبيرة بشاعريته ، وبمعرفته الواسعة لكل علوم عصره . ولعل شاعريته أقلّ أهمية من تلك المعارف التي اكتسبها ، فقد أشار المعري إلى أنه كان يتعاطى الفلسفة[96] . وزاد في ثقته بتميزه ما قاله له أبوه وهو صغير : (أنت للشَّرَف) . وظلت هذه العبارة ترنُّ في ذاكرته حتى آخر حياته ؛ لأنها وافقت شعوره بأنه متميز ، ولأنها صدرت من أب لا يمكن أن يُشَكَّ في كلامه ونظرته إلى الأشياء ؛ لأن الأب في نظر الابن رمز للمعرفة ، وأهل للثقة ، كما الأم رمز للطهر والعفة والحنان :[97]

شادَ لي السُّوْرَ بعد تَوْطِئَةِ الأُسِّ أبٌ قالَ أنت للشَّرَفِ

وعبارة أبيه – إن صَحَّ أنه قالها – غامضة ، يمكن أن تتعدد معانيها ومراميها ، وهي عند ابن الرومي تعني التقدم على أقرانه في كل شيء ، وأن يعيش محترماً بين الناس ، يتقلد منصباً كبيراً ، أو على أقل تقدير يعيش كما يعيش غيره من الشعراء الكبار . وهذا الإحساس بالتميز والتقدم جعله يُكْثرُ من ذكر صفاته التي تؤهله لأن يكون للشرف كما قال له أبوه ؛ فقد ذكر مرة لَلوزير القاسم بن عبيدالله كثيراً من تلك الصفات التي يعتز بها ؛ من عقل راجح ، وشاعرية فيّاضة ، وتمكُّن من الخطابة والترسُّل ، وإجادة لفنون المنادمة ، ثم رأى أن المشكلَة ليست فيه هوً ، بل في ممدوحه الذي لم يتقَصَّ عنه هذه الصفات ، واكتفى بالاستماع إلى أقوال الوشاة والحساد فيه :[98]

فمتى ما أردتَ صاحبَ فَحْصٍ كنتُ ممن يُشاركُ الحُكَماءَ
ومتى ما أردتَ قارضَ شعْرٍ كنتُ ممن يُسَاجلُ الشعراءَ
ومتى ما خَطَبْتَ مني خطيباً جَلَّ خَطْبي فَفاقَ بيْ الخطباءَ
ومتى حاولَ الرسائلَ رُسْلي بَلَّغَتْني بَلاغَتيْ البُلَغاءَ
أين مثلي مُفَاتشٌ لك أمْ أيْـ ـنَ نَديمٌ تَعُدُّهُ نُدَمَاءَ
ما تَقَصَّيْتَ ما لَدَيَّ ولا اسْتَقْـ ـصَيْتَ فاجعلْ إقْصاءَكَ اسْتِقْصاءَ

وهذه الإشادة بفضله نراها في كثير من المواضع في شعره ، وكأنها صارت ضرورة يجب ذكرها في كل مدحة ، ما دام الممدوحون يتجاهلون الشاعر ، أو لا يقدرونه حق قدره ، فلا بأس عندئذ بتذكيرهم بما نسوه ، أو حاولوا تناسيه .

ويلجأ ابن الرومي إلى أسلوب آخر ليقنع الممدوحين بفضله واستحقاقه ، فيطلب منهم أن يجرّبوه ليتأكدوا مما يقول عن فضله وشرفه وطول باعه في الشعر وغيره ؛ لأن التجريب سيظهر صدقه من كذبه . لذا ثار عليهم متَهماً إياهم بعدم الإنصاف ، مشيراً إلى أنه سينجح في التجربة ، وأنه ذو شأن عظيم ، كذلك السيف المهند الذي لا ينفع ما لم يُجَرَّدْ :[99]

ما لي أُسَلُّ مِنَ القِرابِ وأُغْمَدُ لِمَ لا أُجَرَّدُ والسُّيوفُ تُجَرَّدُ

لِمَ لا أُجَـرَّبُ في الضَّرائبِ مَرَّةً يا لَلرِّجـالِ وإنــي لَمُهَنَّـــــدُ
بَلْ قَدْ حكَى التَّجْرِيبُ أَني صارِمٌ ذَكَرٌ فَلِمْ أُلْقَـى ولا أُتَغَمَّـــدُ
لِمَ لا أُحَلَّى حِلْيَـةَ أنــا أهلُهـا فَيُزانَ بي بَطَلٌ وَيُكْفَى مَشْهَدُ

لكن معاصريه لم يجربوه كما يقول ، وأصروا على تجاهله والزِّراية به ، وهذا غير صحيح ؛ فقد جربه معاصروه كثيراً ، وفتحوا له الباب على مصراعيه ليمدحهم وينال عطاءهم ، لكنه أفسد ذلك عليه بسلاطة لسانه ونزقه وطيشه وتهوره ، ولأسباب كثيرة أشرنا إليها من قبل . والمهم ها هنا أن ابن الرومي ما يزال يعتقد أن معاصريه ظلموه من غير أن يعطوه ما يستحقه . وهذا الاعتقاد مهمٌّ عند ابن الرومي ، لأنه بنى عليه فكرة تخيلها عقله ، وضخمتها أحاسيسه المرهفة ، وهذه الفكرة هي إحساسه بأنه مقصود بالظلم والاضطهاد دون غيره من الناس . وهذا الإحساس خطير جداً لأنه بَرَّأَ – من خلاله – نفسه من كل خطأ ، ورمى بأخطائه على جهة خفية غامضة ، قد تكون أهل زمانه ، وقد تكون الطبيعة ، وقد تكون الموت ، وقد تكون الدهر . فالمهم في ذلك وجود من يتحمل المسؤولية عن الشاعر ، ولا يهم بعدئذ معرفة الجهة التي ستقوم بذلك . وهو نفسه لا يعرف المسؤول عن ظلمه ؛ فمرة يرى أن الممدوحين هم المسؤولون عن الظلم الذي لحق به دون غيره من الناس ؛ لأنهم لا يعدلون في العطاء بين الشعراء ؛ فيغدقونه عليهم ، ويحرمون ابن الرومي منه :[100]

بَني طاهرٍ مَدْحي لكمْ دونَ غَيْرِكُمْ بِحُكْمِ النَّدى والطَّوْلِ والبَأْسِ والمَجْدِ
فما بـالُ أيديكُـمْ على الناسِ نَرَّةً سِـوايَ فـإني مِنْ نَـوالِكُـمْ مُكْـدِي
إذا كان حَظُّ الناسِ سُقْيا سَمَائكُمْ فَحَظّي وَمِيْضُ البَرْقِ أو زَجَلُ الرَّعْدِ
فلـو كان مَنْعـاً شامِـلاً لَعَـذَرْتُكُمْ ولكنهُ شيءٌ خُصِصْتُ بـهِ وَحـدي

وهذا الإحساس بالغَبْنِ دون الآخرين جعله يوجِّهُ لومه إلى كبار ممدوحيه من آل وهب ، وآل طـاهر بـنَ الحسين ، وبنـي هاشم مـواليه ، وإسـماعـيل بن

بُلْبُل[101] ، مما يؤكد رسوخ فكرة الظلم في أعماق نفسه ، مهما اختلف الممدوحون .

ونراهُ مرة أخرى يصور الطبيعة ظالمة غاشمة ، تتقصده بالأذى والظلم دون غيره ، وكأنها غيرت حقائقها ونواميسها لأجله ، لكي تتمكن من إلحاق الأذى به ؛ فالغيث نعمة من الله على البلاد والعباد والحيوان والنبات ، لكن ابن الرومي لم ير في الغيث ما يراه كل عاقل ، بل رأى فيه شراً نزل من السماء ليعيق سيره في السفر ، فجعل الأرض موحلة ، تزلق الأقدام عليها ، فتتهاوى الأبدان والدواب إلى الأرض :[102]

أبى أنْ يُغيثَ الأرضَ حتى إذا ارْتَمَتْ برَحْلي أتاها بالغُيُوث السَّواكب
سَقَى الأرضَ مِنْ أجلي فأضْحَتْ مَزلَّةً تَمايَلُ صاحِبْها تَمايُلَ شارِب
لِتَعْويقِ سَيْري أو دُحُوضِ مَطِيَّتي وإخْصابِ مُزْوَرٍّ عَنِ المَجْدِ ناكِب

فالغيث لم يسقط إلا من أجله ، لكي يعيق سيره ويوقع مطيته على الأرض الموحلة . وهذا الإحساس بالظلم والاضطهاد دون الآخرين حالة مَرَضية مُتَوَهَّمَةٌ بلا شك ، لكنها تملكت نفس ابن الرومي ، وسيطرت عليها ، فراح يعتقد أن ما أصابه من مصائب في ممتلكاته وأسرته ونفسه لم يكن شيئاً عابراً غير مقصود ، بل هنالك عدو أو خصم يتربص به الدوائر ، لكنه لم يستطع تحديد هويته ، فمرة يراه في الناس ، ومرة أخرى يراه في الطبيعة ، ومرة ثالثة يراه في الموت ، ورابعة في الدهر .

والموت مصيبة كبيرة بلا شك ، يأخذ منا مَنْ نحب ومن لا نحب ، منْ غير أن نستطيع له دفعاً ، وإن استعنا بالتمائم والرُّقَى ، ولا يجيرنا منه أحد ، لكَنه عند ابن الرومي عدو قصد إيذاءه هو دون الآخرين ، بل إنه ترك الناس جميعاً وقصده هو ، ثم بحث بين أولاده عن أحبهم إلى قلبه ، فاختار الأوسط دون أخويه ، على الرغم من محاولة الشاعر دفع الموت عنه ، لكن الموت الظالم أخذه منه غصباً :[103]

تَوَخَّى حمَامُ الموت أَوْسَطَ صبْيَتي فَللَّه كَيـفَ اختـارَ واسطَـةَ العقْـد
ولا بِعْتُـهُ طَوْعـاً ولكـنْ غُصِبْتُهُ ولَيسَ على ظُلْمِ الحوادثِ مِنْ مُعْدي

ويرى أخيراً أن الدهر تقصده بالأذية والمعابثة منذ أن خُلق ، وأن ما يفعله الدهر به ليس مزاحاً ، بل هو جدٌّ :[104]

إلى اللهِ أشكو سُخْفَ دهري فإنه يُعـابثُني مُـذْ كنـتُ غـيرَ مُطائـبِ

وفي مقابل إحساسه بالتميز ، وبأنه مقصود دون غيره بالظلم والاضطهاد برز في شعره إحساس عميق بالحرمان من كل شيء ؛ من الطعام والشراب والنساء والشباب والتقدير والعطاء ، على الرغم من تقدمه وفضله . وهذا الكلام كله تحول عنده إلى اعتقاد راسخ لا يفارقه ، لذا نراه يذكره في كل قصيده ، أو يذكر معظمه . ثم تحول ذكر هذه الأحاسيس التي تحدثنا عنها إلى لذة نفسية عميقة ، يحسها كلما ذكر تلك الأشياء ، وكأنه بذكرها ينفِّسُ عما في نفسه من شعور بالحرمان والاضطهاد ، وهذا الإحساس يظل راسخاً في أعماقه حتى لو أعطاه الممدوح ما يستحق من عطاء ، لأن عطاء الممدوح حَرَمه من أن يتشكى على عادته ، فَحُرِمَ بذلك من لذة كبيرة :[105]

حُرِمَـتْ لَـذَّةَ الشَّكايَـةِ نفسي وَجَدَا صاحِبيْ وأصبحتُ عَبْدا

لكن المشكلة الكبرى عنده تظهر عندما يعطيه الممدوح عطاءً قليلاً ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يهجوه فيخفف عن نفسه من غضبه على الممدوح ، ولا يستطيع أن يتشكى ليجد تلك اللذة في التشكي ، كما أن عطاء الممدوح ليس كافياً ليجعله غنياً ، فتضيق نفس ابن الرومي بين العطاء القليل الذي يحرمه من الهجاء ولا يجلب له الغنى ، وبين عدم التشكي الذي يحرمه اللذة :[106]

سألـتُ فَأَعْطيتـمْ قليـلاً فلَمْ يكنْ غنايَ ولا اسْتَبْقَى مُرُوتي على فَقري
بَذَلْتُـمْ مـنَ المعـروف ما فَلَّ عفَّتي وَقَيَّدَ تَبْكيري وَضَعْضَعَ مِنْ قَـدْري
فلَمْ تَصْنَعوا الحُسْنى ولَم تفعلوا التي أُداوي بشكْواها الحرارةَ فِي صَـدْري
فلا لَـذَّةُ الشكوى ولا فَـرْحَةُ الغِنى وَأَلْمَظْتُمُـوني لَمْظَـةً ثَبَّـطَتْ صَـبْري

فممدوحه قطع عليه الطريق إلى هجائه بالعطاء القليل الذي أسكت لسانه عنه ، لكنّ نفس ابن الرومي كانت تفور وتغلي لأنها حرمت لذة الشكوى ، والدواء الذي تجده في الهجاء .

و(ألمظتموني) لفظة عميقة الدلالة على نفسية ابن الرومي في تلك اللحظة ، فألْظَهُ : أي جعل الماء على شفته من غير أن يتركه يبتلعه ، أو جعله يتتبَّع الطَّعْمَ ويتذوقه بتَمَطُّق ، وهو أن يَضُمَّ إحدى شفتيه على الأخرى مُحْدثاً صوتاً يكون منهما . فَتأملْ هذا المعنى الدقيق الذي قصده ابن الرومي ؛ فعطَاء الممدوح لم يكن كافياً ، كذلك الماء الذي يَبُلُّ الشفتين من غير أن يدخل إلى جوف الشارب ، مما يجعله يتذوقه فحسب ، من غير أن يهنأ بطعمه .

وبهذا الفهم لحقيقة الشكوى في شعره نستطيع أن نفهم كثيراً من أهاجيه الموجهة إلى ممدوحين معروفين بالإنصاف وتذوق الشعر ؛ فالهجاء يطفئ حرارة الغضب في صدره ، والشكوى من سوء الحال والظلم وسوء التقدير يجد فيها لذة ، وإن كانت لذة غريبة ، لكنها ليست مستغربة من رجل غريب الأطوار ، مما يوحي إلينا أن كثيراً مما قاله عن سوء حاله ، وعن الظلم الذي لحق به ليس إلا كلاماً يتلذذ بذكره ، وإن كان يخفي وراءه شيئاً من الحقيقة ، لكنه ليس بحجم الحقيقة التي عرضها ابن الرومي في شعره ، وطلب منا ومن معاصريه أن نصدقها .

ولعل معاصريه وقفوا على ما وقفنا نحن عليه ، وكان هذا سبباً – من بين أسباب أخرى سبق أن أشرنا إليها – جعلهم يقللون من عطائه ، ولا يصدقونه في كل ما كان يقوله . وبهذا الفهم أيضاً نستطيع أن نفسر التناقض الكبير الواضح في شعره بين غناه الذي اكتسبه من المديح أو مما تركه له والده ، وبين الإكثار من ذكر الفقر وسوء الأحوال ؛ لأن القضية لم تعد تسجيلاً للحال ووصفاً لها ، بقدر ما صارت موقفاً نفسياً يتلذذ الشاعر في التعبير عنه .

وهنالك تعليل آخر لكثرة الشكوى في شعره ، وهو تعليل فني ؛ فقد كان ابن الرومي يجاري غيره من الشعراء في التشكي . والشعراء دَيْدَنُهم وهِجِّيْراهُمُ

الشكوى من سوء الحال أو من كثرة العيال وقلة النفقة ، أو من سوء تقدير أهل زمانهم لهم ، أو من إحساسهم بالغربة في مجتمعهم وبين أهليهم . . . وهذه النغمات الشاكية لا يكاد يخلو منها شعر شاعر ، وهذا يعني أن ابن الرومي لم يستلهم تلك الشكوى من شاعر بعينه كأبي تمام ، بخلاف ما يقول الدكتور شوقي ضيف[107] .

الهوامش والمراجع

(1) ابن الطقطقا ، محمد بن علي بن طباطبا : **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** : طبع بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ص243 .

(2) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر : مصر : مطبعة السعادة ، الطبعة الثانية ، 1948 ، **تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، أربعة أجزاء : 145/4** .

(3-4) الحنبلي ، ابن العماد : **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، ثمانية أجزاء 174/2 ، بيروت : دار المسيرة ، الطبعة الثانية ، 1399هـ .

(5) مروج الذهب ، 220/4 .

(6) ضيف ، شوقي : **العصر العباسي الثاني** ، الطبعة الثامنة ، القاهرة : دار المعارف ، 199 : ص47 .

(7) الفخري في الآداب السلطانية : ص267 . الرقاعة : الحماقة وضعف العقل .

(8) انظر الفخري في الآداب السلطانية : ص272 .

(9) انظر ابن تغري بردي يوسف : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر** ، ستة عشر جزءاً : 212/3 ، القاهرة : طبع دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ، 1972 .

(10) الجاحظ ، أبو عثمان : **رسائل الجاحظ** (رسالة في مناقب الترك) ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1964 ، جزءان : 71-70/1 .

(11) الطبري ، محمد بن جرير : **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر : دار المعارف ، عشرة أجزاء ، سلسلة ذخائر العرب 284/9:30 .

(12) ابن الرومي : **ديوان ابن الرومي** ، تحقيق : الدكتور حسين نصار ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، 1993 ، ستة أجزاء : 581-580/2 . قيباخا : اسم أعجمي . قوهاخا : ابتعد أيها الجبان بالفارسية . كماخة : التي تصنع الكامخ أو تبيعه . والكامخ : المخللات المشهية .

(13) ديوان ابن الرومي ، 1820/5 .

(14) انظر : مروج الذهب ، 149/4 .

(15) ديوان ابن الرومي : 323-322/1 . مُريع : خصيب . طراء : جديدة . المَجْشوب : الغليظ الرخشن . مُلَكّك : مكسر . برامي : قُدُوري المصنوعة منَ الحجر . مَشْعُوب : مكسّر أو مشقّق . حِبابي : قُدوري . عِلْق : نفيسَ . وانظر فيه أيضاً : 2329/6 ، 2441-2440 .

(16) انظر ابن الرومي ، 1/56-57 ، 6/2376 .

(17) انظر ديوان ابن الرومي : 2/667 .

(18) انظر ديوان ابن الرومي ، 1/252-253 .

(19) انظر ديوان ابن الرومي ، 5/1825-1826 .

(20) ديوان ابن الرومي ، 1/61 .

(21) ديوان ابن الرومي ، 6/2394 . مُنَفلي : يعطيني زيادة عما أستحق . مُغَفّلة : في سعة من العيش . وانظر فيه أيضاً : 3/992 ، 1089 .

(22) ديوان ابن الرومي ، 4/1487 . أدقع : ذل وأسف في طلب الكسب . العيلة : العيال . يمري : يسكب بسخاء .

(23) ديوان ابن الرومي ، 4/1487الحاشية 3 . القفيز : مكيال كان يكال به قديماً ، ويعادل ستة عشر كيلوجراماً تقريباً . انظر المعجم الوجيز (الميسر) : الكويت : دار الكتاب الحديث ، الطبعة الأولى ، 1993 : مادة (قفز) .

(24) ديوان ابن الرومي ، 2/571 .

(25) انظر ديوان ابن الرومي ، 1/89 .

(26) انظر مروج الذهب : 4/287-289 .

(27) انظر معجم الأدباء ، 4/1784 ، والعقاد : **ابن الرومي حياته من شعره** : سلسلة كتاب الهلال ، العدد 214 ، سنة 1969 ، القاهرة : دار الهلال ، ص97 .

(28) انظر البغدادي ، الخطيب : **تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463هـ** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ثلاثة عشر جزءاً : 7/380 .

(29) انظر مروج الذهب ، 4/138 .

(30) المرزباني ، الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) : طبع دار نهضة مصر ، 1965 ، تحقيق : علي محمد البجاوي : ص145 .

(31) الحصري ، القيرواني ، جمع الجواهر في الملح والنوادر : ص292 .

(32) انظر الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس : بيروت : دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، 1993 ، سبعة أجزاء : 17912-1790/4 ، وهذا الكتاب مفقود .

(33) ديوان ابن الرومي ، 4/1619 .

(34) انظر ديوان ابن الرومي ، 1/247 ، 5/1820 .

(35) انظر المصدر السابق (على الترتيب) : 6/2299-2312 ، 2489 ، 3/1131 ، 2/540 ، 624 ، 80-79/1 ، 3/916-924 ، 470/4 . وانظر أيضاً العقاد ، عباس محمود ، ابن الرومي حياته من شعره : ص97-106 .

(36) العناني ، نشأت : **فن السخرية في شعر ابن الرومي** ، القاهرة : مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، 1982 ، ص46 .

(37) ديوان ابن الرومي ، 323-319/1 . الشـخـوص : الخـروج من البلد . الإفك : الكذب والدعـاء البـاطل . حـوب : إثم . يمين : يكذب . ابن فجـرة : الفـاجـر . يحـوب : يأثم . مـاتوا : مـذبوا . الثالب : العـائب . المشبوب : المتقد الساطع . حائل : متغيرة ، يريد أن طبيعتها تغيرت فلم تعد تحلب . المنخوب : الهزيل .

(38) انظر حسن ، محمد عبدالغني : ابن الرومي ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الأولى ، 1955 ، **سلسلة نوابغ الفكر العربي** ، 11 : ص17 .

(39) المازني ، إبراهيم عبدالقادر : **حصاد الهشيم** ، القاهرة : دار الشعب ، الطبعة الثالثة ، 1969 : ص269 .

(40) الحـصـري ، القـيـرواني ، أبو إسـحـاق ، جـمع الجـواهر في الملح والنوادر (ذيل زهر الآداب) ، ص294 .

(40) انظر المصدر السابق : ص294-295 .

(42) معجم الأدباء ، 1773-1772/4 . وانظر القصيدة كاملة في ديوان ابن الرومي : 1250-1247/3 .

(43) ديوان ابن الرومي ، 254/1 . تُجْنَبُ : تُقَرَّب . أُستعَط : أُرْغَم . الرفيهة : الرفاهية . الكريهة : الحرب .

(44) ديوان ابن الرومي : 2530/6 .

(45) ديوان ابن الرومي : 157-156/1 . بَراذين : جـمع برْذَوْن : ضـربٌ من الدواب يخـالف الخـيل العراب ، عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء . أغثّاء : رديئو الفهم والإدراك . مَعْبَد : من أشهر المغنين فيَ العصر الأموي . جافي الحُداء : رديئه وغَليظه . والحُداء : ضرب من الغناء .

(46) الحصري ، القيرواني ، أبو إسحاق ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي : دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، جزءان : 273/1 . والأبيات في ديوان ابن الرومي : 2425/6 .

(47) ديوان ابن الرومي : 1024/3 . هَرّار : كثير الهَرير ، وهو صوت الكلب دون النباح .

(48) ابن رشيق : **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، بيروت : دار الجيل ، الطبعة الرابعة ، 1972 ، جزءان : 238/2 .

(49) ديوان ابن الرومي : 1029/3 .

(50) هو أحمد بن ثَوّابة ، كاتب نصراني الأصل ، له مجموع رسائل ، ورسالة في الكتابة والخط ، وقد كتب للخليفة المعتضد بالله . انظر أخباره في الفهرست لابن النديم ، تحقيق رضا تجدد : الطبعة الثانية ، طهران ، 1973 ، ص144 .

(51) انظر ديوان ابن الرومي : 224-213/1 .

(52) انظر ديوان ابن الرومي : 2070-2045/5 .

(53) ديوان ابن الرومي : 604-603/2 . الرَّديد : المردود . لا سيْما : لا سيّما .

(54) انظر ديوان ابن الرومي ، ياقوت ، معجم الأدباء : 102/1 .

(55) ديوان ابن الرومي : 224-223/1 . ذَباذِب : حيرة وتردد واضطراب .

(56) ابن خلكان : **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق الدكتور إحسان عباس : بيروت : دار صادر ، ثمانية أجزاء : 361/3 .

(58) ديوان ابن الرومي ، 696/2 .

(59) ديوان ابن الرومي : 1594/4 . الأُنف : الجُدُد . العُجُف : الهزال والضِّعاف .

(60) ديوان ابن الرومي ، 2484/6 . وانظر فيه أيضاً : 2434/6 .

(61) ديوان ابن الرومي ، 1400/4 . الحَنوط : كل ما يُخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

(62) ديوان ابن الرومي ، 2486/6 .

(63) ديوان ابن الرومي ، 2357/6 .

(64) ديوان ابن الرومي ، 315/1 . مُتَّئِب : مستحيي .

(65) ديوان ابن الرومي ، 386/1 .

(66) ديوان ابن الرومي ، 910/3 . الكسر الأخيرة : التكسير . وَقْر : النقرة تكون في الحجر والعظم والعين . البكْر : يريد قصائده . أَثْخَنت : أكثرت من العطاء . وَحْر : حقد وغضب .

(67) ديوان ابن الرومي ، 2244/6 . اللفيف : أخلاط الناس . عَراك : أتاك طالباً للمعروف . مؤتنف : مبتدئ .

(68) ديوان ابن الرومي ، 87-86/1 . صَفاني : من الصفا أي الحجر العريض الأملس . الجَداء : العطاء .

(69) النويهي ، محمد ، **ثقافة الناقد الأدبي** ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، 1949 : ص151 .

(70) حصاد الهشيم ، ص287 .

(71) ديوان ابن الرومي ، 1571/4 .

(72) ديوان ابن الرومي ، 1197/3 (73) المصدر السابق : 282/1 .

(74) ديوان ابن الرومي ، 2441-2440/6 . بُدّ : صنم .

(75) ديوان ابن الرومي ، 2329.6 .

(76) ديوان ابن الرومي ، 1635/4 .

(77) ديوان ابن الرومي ، 361.1 . . أُلْحُفْتُها : تضررت بها . وانظر نماذج أخرى في المصدر نفسه : 39/1 ، 539/2 ، 951/3 . .

(78) ديوان ابن الرومي ، 110/1 .

(79) ديوان ابن الرومي ، 361-360/1 . مَيْعَتي : أول شبابي . القرَى : إطعام الضيف . تَسَنَّمْتُها : ركبتها واعتليتها . تَرَدَّفْتُها : ركبت خلف في الخلف . أَوْجَفْتُها : حَثَثْتُها . سُموطاً : قلائد . يريد شعره . أَفْرق : أخاف .

(80) ديوان ابن الرومي ، 1421/4 .

(81) انظر ديوان ابن الرومي ، 741/2 ، 1250-1247/3 .

(82) ديوان ابن الرومي ، 2297/6 . مُنْصُلي : سيفي .

(83) ديوان ابن الرومي ، 91/1 .

(84) ديوان ابن الرومي ، 1840/5 .

(85) انظر ديوان ابن الرومي ، 705/2 .

(86) انظر العناني ، نشأت ، فن السخرية في شعر ابن الرومي : ص501-502 .

(87) ديوان ابن الرومي ، 2299/6 .

(88) ديوان ابن الرومي ، 2559/6 .

(89) ديوان ابن الرومي ، 2408/6 .

(90) ديوان ابن الرومي ، 1462/4 . النقاقيع : المستنقعات أو المياه الراكدة الفاسدة .

(91) ديوان ابن الرومي ، 743/2 .

(92) معجم الأدباء : 1859/4 .

(93) المرزباني : **معجم الشعراء** ، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، مصر : دار إحياء الكتب العربية ، 1960 ، ص148 .

(94) معجم الأدباء ، 1860/4 .

(95) انظر ديوان ابن الرومي ، 351/1-352 . وفيه : (النقص) بدلاً من (الشين) ، و(المثالب) بدلاً من (المعايب) ، و(كموت) بدلاً من (كفقد) . وقد ذكر محقق الديوان اسم المهجو بأنه الوزير أبو القاسم المرجى . هكذا بلا تدقيق أو تأكد من هذه الشخصية .

(96) انظر المعري ، أبو العلاء ، رسالة الغفران ، تحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) ، سلسلة ذخائر العرب ، 4 : مصر : دار المعارف ، الطبعة الرابعة : ص477 .

(97) ديوان ابن الرومي ، 1566/4 . الأُسُّ : الأساس .

(98) ديوان ابن الرومي ، 81/1-85 .

(99) ديوان ابن الرومي ، 748.2 . القراب : غمد السيف . ذَكَرٌ : حادٌّ وقاطع .

(100) ديوان ابن الرومي ، 792/2 . الطَّوَّل : الفضل والغنى . مُكْدي : متسول بأسلوب . ثَرَّة : غزيرة وكريمة .

(101) ديوان ابن الرومي ، 199/1 ، 247 ، 1906/5 ، 2448/6 .

(102) ديوان ابن الرومي ، 214/1 . مَزِلَّة : زَلَقَة . دُحُوض : انزلاق . مُزْوَرٌّ : مبتعد ومنحرف . ناكب : مائل ومعتزل .

(103) ديوان ابن الرومي ، 624/2-625 . وانظر حاوي إيليا ، **ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره** : 231 .

(104) ديوان ابن الرومي ، 214/1 . مُطايب : ممازح .

(105) ديوان ابن الرومي ، 717/2 . جَدا : عطاء .

(106) ديوان ابن الرومي ، 1066/3 . مُرُوْتي : جمع مَرْت : الأرض التي لا نبات فيها . فَلَّ : قَلَم وكسر . تبكيري : سعيي مبكراً إلى الرزق . ضَعْضَع : قلّل وأضعف .

(107) انظر ضيف ، شوقي : **العصر العباسي الأول** ، القاهرة : دار المعارف . الطبعة الثانية عشرة : ص280 .

* * *